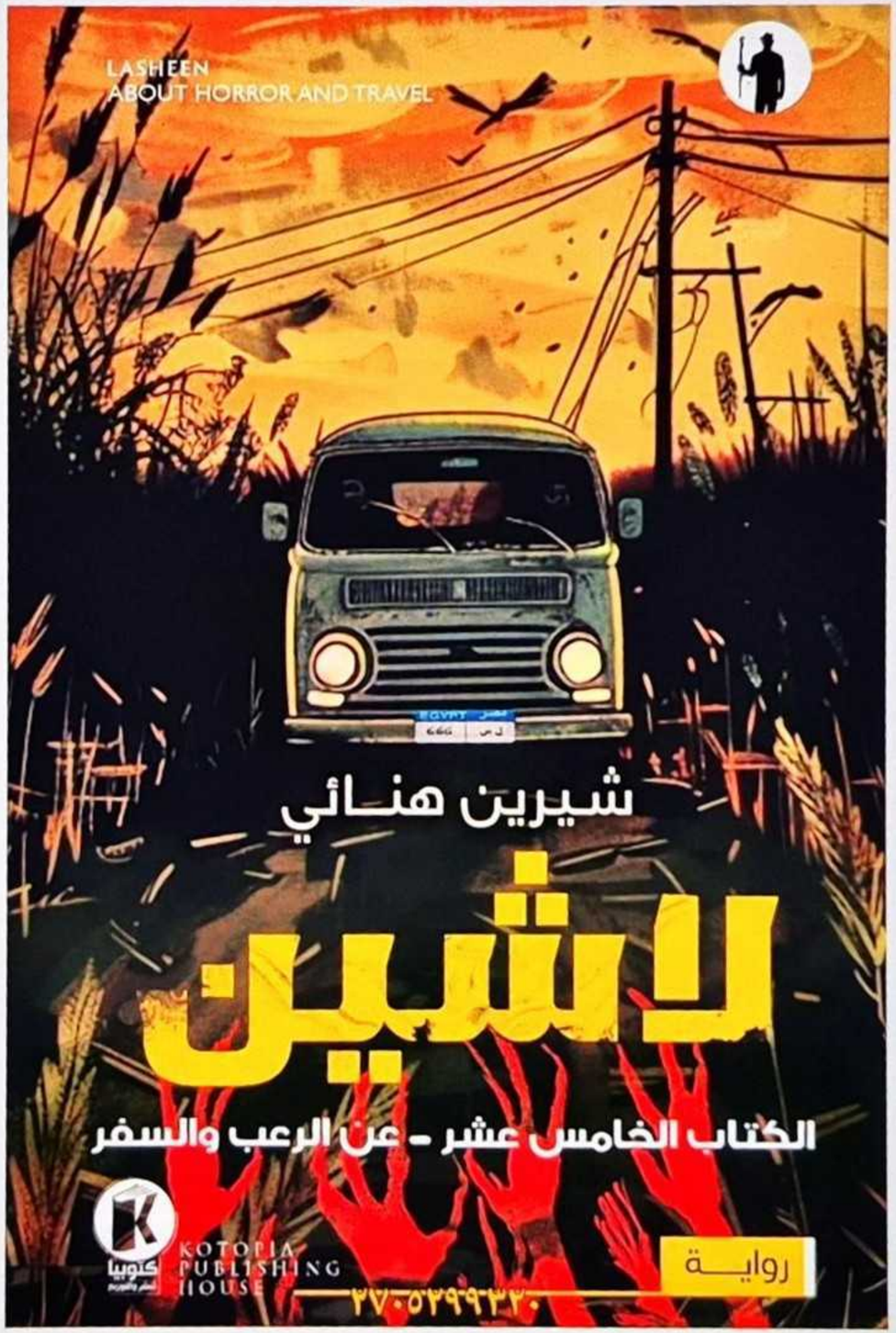

حصريا على روايات وكتب عربية وعالمية
https://t.me/riwayat2025

لاشين

عن الرعب والسفر

الكتاب الخامس عشر

شيرين هنائي

كتوبيا
للنشر والتوزيع

إلى الأعزاء

م. أيمن حويرة ونهى عودة.. لكما الفضل الأكبر بعد الله سبحانه وتعالى. أشكركما.

ا. عمرو يسري.. البداية كانت من أوديوهات العزيزة.. شكرًا لك ولها.

الفنان الدكتور محمد خميس.. إيمانك بالشخصية، وأداؤك لها أضاف لها الكثير.

إلى زوجي.. صديقي..شريكي..

أحبك.

شكر خاص

لجامعة برشلونة، ولمركز جوزيف بانكس راين، وللجمعية الروحانية البريطانية على جهودهم المستمرة في التعليم ونشر المعرفة.

السيد إد وارن وزوجته السيدة لورين وارن.

الدكتور محمد أحمد خالد توفيق.

مقدمة

أنا.. لاشين.

لا شك أنها الحقيقة الأهم التي يجب عليك استيعابها، إلى جانب كوني الأول، والأخير. ولتحمد الله على هذا. فالعالم لن يتحمل معرفة حقيقة ما مررتُ أنا به، ولا ما تسببتُ فيه، ولا ما أصبحتُ عليه.

أيُّ لاشين آخر لا يُعوَّل عليه، سواء كان من عائلة الدجَّال الأشهر في طنطا: الشيخ لاشين، أو كان من خارجها. أيُّ لاشينٍ آخر عليه أن يتوارى حتى تنتهيَ الأزمة التي تسببتُ فيها عمدًا وبلا قصد.

هل يستأهل الأمر أن أحكي؟ لم أدرك ضرورة ذلك إلا مُتأخرًا، وكأن لا زال بداخلي ما يشفق على البشر ومصيرهم لو ظلوا على جهلهم. وأحيانًا ما أرى أن الجهل نعمة، فلو أن رصاصة خرجت من مسدس لتصيبك بعد كسر من الثانية، فبماذا ستستفيد لو عرفت أنها انطلقت؟ لا وقت للفرار، ولا لصلاة أخيرة.

لكنني سأحكي.. كفعلِ بشريٍ أخير، ولأنني وعدت سهير زاهر، سأحكي.

***

في البداية -وكأي بداية- يبدو الطريق شديد الوضوح، شديد التفاؤل.(1)

---

(1) من كتاب «الطريق»- أيمن حويرة.

الفصل الأول

-١-

يونيو 2024

طنطا

تربَّع الحاجُّ مدحت على أريكة الصالون –التي صارت أريكة غرفة الجلوس الآن- وإلى جواره زوجته الحاجَّة مريم. على يمينه سهير جالسةً في ركنِ الصالة، وفي الركن المقابل جوار الباب يجلس أسامة.

- لماذا لا تقترب يا أسامة يا بني؟

- التكييف يا حاج. يتعبني التكييف.

تقول سهير في عِند:

- لا أطيق الحرّ يا عمي، أنت تعرف هذا. لا أنا ولا رانيا ولا شريف.

نظر أسامة للحاجّ مدحت نظرة بمعنى «أرأيت كيف تستفزني»، فنظر إليه الرجل نظرة بمعنى «طوّل بالك»، وهو يضم أطراف أصابعه معًا.

- والآن يا أبنائي، وبعد مرور ثمانية أشهر على عودة شريف بالسلامة من.. من حيث كان، أودُّ أنْ أؤكد أنَّ أسامة فعل كل ما في وسعه، وخاطر بنفسه لإنقاذ الولد، بل وأنقذ –ما شاء الله- رجلًا خِطرًا مثل مهدي أبركان، وزوجته، وواجه شيطانًا عتيدًا دون أن يتتعتع.

قاطعته سهير:

- معذرة يا عمي، هذا واجبه. لقد قدمتَ أنت أيضًا كل ما تستطيع.

جاء صوت رانيا من حيثُ جلست في الشرفة مع شريف ومهاب:

- ولاشين أيضًا فعل ما في وسعه. الرجل ليس شيطانًا يا عمي.

قالت الحاجَّة مريم:

- الغرض مما يقول الحاجُّ مدحت أن وقتًا طويلًا مضى على فراقكما، ويبدو والله أعلم أنكما لن تستطيعا العيش دون بعضكما. هذه عِشرة عمر، والدكتور لا يُقارن بأي شخص آخر.

أطرقت سهير، فأكمل الحاجُّ مدحت:

- دعونا ندخل في الموضوع. جاءني هذا الشاب الخمسيني الوسيم طالبًا يدك يا سهير يا ابنتي. كان قد طلبَ يدكِ منذ أكثر من ثلاثين عامًا من أبيكِ، وقد تساهل أخي معه ووثق فيه، ولم يمهلكما فترة كافية للخطوبة. لقد تزوجتِ يا ابنتي وأنت في الثامنة عشرة من عمرك، وأنت أيضًا يا أسامة كنت حديث التخرج. لقد قطعتما طريقًا طويلًا معًا، وخضتما صعابًا كثيرة. لكنَّ الزمنَ يتغير ويغيرنا. أنتِ لم تعودي سهير ذات الثامنة عشرة ولا أنت يا بني. كلنا نتغير، لكن ليس بالقدر نفسه. بعضنا ينضج فقط، ويصير نسخة نحتتها ضربات الحياة عن نفسه القديمة، وبعضنا تعجِنه الحياة ليصير شخصًا آخر تمامًا.

قالت سهير:

- المرء لا يتحول إلى شخصٍ آخرَ يا عمي. بعض الناس تخفي حقيقتها، وما تفعله مصاعبُ الحياة يعرِّي هذه الحقيقة لا أكثر. أنا لم أتغير كما يتهمني أسامة. أنا سهير المذعورة التي كانت ترى أمورًا مخيفة، ينكر وجودَها أبوها وأختُها، ولم يؤمن بها سوى حبيبها. ثم بدأ هذا الحبيبُ يهيل التراب عليها ليدفنها حيّة. أسامة لا يختلف عمّا فعله أبي وفعلته رجاء معي. أعرف أنّه فعل هذا بدفع الخوف عليّ وعلى ابنينا، لكنه خنقني يا عمي! وجدتُ نفسي بعد أكثر من ربعِ قرن شخصًا باهتًا يكذِّبُ نفسه كلما التقطت كاميرته صورة شبح أو جنيّ!

كأنني.. كأنني أسدل الستائر حول نفسي وأنكر وجود الشمس! حتى بعدما هددَ شيطانٌ حياةَ حفيدنا، ظل يهيل الترابَ على الحقيقة، ويُبعد عنّا كل من يستطيع المساعدة. هذا هو أسامة يا عمي. نعم.. لم يتغير، أنا التي كشفت عن حقيقتي التي عذبتني وعذبت ابنتي وابني وحفيدي.

نظر الحاجُّ مدحت إلى أسامة، لكن الأخير ظل صامتًا.

- سهير.. هل تقبلين العودة إلى هذا الرجل زوجةً؟

أغمضت سهير عيناها وصمتت.

أعوامٌ طويلة لم يكن في حياتها سند سواه. كان جارًا، ثم صديقًا، ثم حبيبًا، ثم زوجًا وأبًا ومَرجعًا ومُنقِذًا. لم يقصر في أيٍّ من تلك الأدوار، وهي تشهد وتقِرُّ بذلك، لكن ها هي الآن تبحثُ عن رفيقِ رحلة غريبة خطرة، رفيق مجنون منطلق يلائم ما تطوَّر من شخصيتها مؤخرًا. هي لن ترضى أن يكون هذا الرفيقُ أحدًا غير أسامة، لكنه غير قادر على هذا. كل تلك الأدوار المسؤولة التي أدّاها خلال عقود ليس فيها مكان للجنون. كيف يكون أبًا ومتهوِّرًا في الوقت نفسه؟ كيف يكون صديقًا ويبخل عليها بوجهة نظره؟ كيف يكون زوجًا وحبيبًا ولا يَغير عليها من رجل آخر يعشقها؟

الحقيقة أن سهير تحبُّ أسامة، ولن تحبَّ سواه، لكني أرى –أنا لاشين- أنَّ مشكلتها في تصرفه الأخير فقط. تلك اللحظة التي تحوَّل فيها إلى (حلَّة ضغط)، وانفجرت فيها كلُّ ضغوطه فألهبتها بخار الغيرة والخوف وانعدام الثقة في النفس. كيف فعل هذا؟ كيف اختفى بعد ذلك من حياتها وعاقبها على جُرم ارتكبه هو؟

سهير تقرأ كتبي، وتعرف ما عانى منه أسامة خلال فترة ابتعادهما، وهي الآن تعرف أنَّ أباها لم يمُت(2) لكنَّه تخلى عنها طوعًا وسلَّمها لأسامة ليقوم بدوره بدلًا عنه.

تعرف أن الحاجَّ زاهر ترك الجميع وهويته القديمة كي لا يفتنَ النَّاس بقدراته الهائلة ويظنونه وليًا أو نبيًا، لكنها طفلة بعد، لن تقتنع بأن أباها يضطر إلى تركها للذهاب إلى عمله. لقد تركها في عمر الثامنة عشرة وصارت مسؤولية أسامة بالكامل، وتحمَّل الرجل المسؤولية بشجاعة أحسده عليها..

فهل تقبل أن تعود له مرة أخرى؟

***

تسترق رانيا السمع من وقت لآخر على ما يحدث في الصالة وراء باب الشرفة. شريف يجلس عند نهاية السور جوار مهاب المتربع أمام صحفة عليها مربعات الجلاش والبسبوسة وأكواب الشاي.

قال شريف لمهاب:

- معذرة يا صديقي، لم أكن أعرف أنَّ الحاجَّ مدحت قادم اليوم.

- أستاذة سهير أيضًا لم تكن تعرف، فقد سمحت لي بالزيارة لأحكيَ لها عن الرسالة التي وردت للبرنامج. على العموم سأنتظر.

سألت رانيا في فضول وهي تفُكُّ طرفَ ضفيرتها وتعيد تضفيره مرارًا:

- ما محتوى هذه الرسالة؟

- قصة غريبة أحداثها هنا، على الطريق الزراعي قرب مدخل طنطا.

تبع مهاب كوبَ الشاي بقطعة بسبوسة، ثم أكمل:

- لم أكن أعرف أن الأستاذة تصنع بسبوسة بهذه الروعة.

ضحكت رانيا، فقال شريف:

- بل هي من صنع رانيا.

نظر مهاب في انبهار إليها، ثم حكّ عنقه حرجًا، فأطرقت ونظرت إلى الشارع في خجل.

- أ.. المهم.. الرسالة.. شابٌ يعمل في بنزينة على الطريق الزراعي منذ فترة، ويسمع حكاية متداولة عن سيارة أجرة تظهر في الوقت نفسه من كل عام، تزود خزانَ الوقود من البنزينة، ثم تخرج إلى الطريق وتختفي فجأة.

سأل شريف:

- وهل رآها بنفسه؟

- نعم. العام الماضي بعد شهر من عمله في البنزينة. غدًا يوم ظهورها، ويود أن نحقق في الأمر.

قالت رانيا:

- أمي لا تريد العودة للبرنامج.

- لا أتكلم عن البرامج. أتكلم عن ممارسة ما تحبه الأستاذة؛ التقصي الماورائي. سنذهب ونسمع من الناس، ثم نرى بأنفسنا. لو وجدنا تفسيرًا فالحمد لله، لو لم نجد، فلن نخسر شيئًا.

غمغم شريف:

- لا أعتقد أن الأمر سيثير فضولها. كيف ستتحرون الأمر إن كانت السيارة تختفي؟

قال مهاب وهو يقلب قطعة جلاش بين يديه في إعجاب:

- ما شاء الله، كأنها جاهزة بالضبط. آه، كنت أقول أنها ستهتم، لأنه ما أن تختفي السيارة من أمام البنزينة، حتى تظهر على الجانب الآخر من الطريق. هكذا فورًا.

اتسعت عينا رانيا دهشة، وسألت:

- إمم.. هل تحدث أحدٌ إلى السائق؟

- نعم. الرجل يزعم أنه لا يتذكر أبدًا ما حدث منذ غادر محطة الوقود، بل وينكر من الأساس أن شيئًا حدث. الأغرب من هذا أن الميكروباص يركبه عدد محدد من الزبائن في كل رحلة، بعضهم لا يعود مع السائق.

تبادل شريف ورانيا النظرات. قامت رانيا وهتفت في حماس:

- سأنادي ماما.

صاح شريف:

- هل جننتِ؟ انتظري حتى نرى أمر العريس.

قالها ساخرًا، لكن نبرة مرارة غطت على ابتسامته. قرَّب مهاب طبق الحلوى ومنه وقال:

- أرى أن تجرب، لن تخسر شيئًا.

- أي شيء أجرب؟ الحلوى؟

- لا. أقصد الأستاذة. لن تخسر شيئًا من تجربة العودة للدكتور. هذه فرصة لبداية جديدة.

- لا أعتقد أن الأمر سيفلح. لن يتعدى كونه كنس الغبار وإخفاءه تحت البساط. ما بينهما معقد أكثر من أن يُحل بسهولة، وأبي لا يعرف كيف يناقش أو يصارح.

احتجت رانيا:

- لا يا شريف. كلاهما يحتاج الآخر. يجب أن يتصارحا قبل أن يعودا، اسمع ما يقوله جِدّو مدحت..

***

- أرى أن تُخطبا، بشروط جديدة ومهر وشبكة وكل شيء. لا تنظر لي هكذا يا أسامة! البنت لم تحصل على مهر ولا شبكة! أخي كان متساهلًا، وكانت ظروفك صعبة. أنتما لم تعيشا شبابكما، لقد انخرط هو في مسؤولية بيت وأسرة وهجر هواية التمثيل لأجلكم، وتركتِ أنت الفن والرسم والتصوير وصرتِ مصورة أفراح وأمًا في سن التاسعة عشرة! ما رأيك يا ابنتي؟

ضحكت سهير في مرارة وقالت:

- نُخطَب مجددًا! أضحكتني يا عمي.

أخيرًا تكلم أسامة، فقال:

- اسمعي يا سهير. عمك معه حق. نحن لم نعِش. أنا شِخْث قبل الأوان، وأنت تبعتِني، لكن يعلم الله أنني حاولت أن أكون رفيق درب، لا زوجًا فقط. كنت أذهب معك إلى الموالد لأحميكِ من المضايقات وأنا أرغب في أن أعيش حياة عاديّة بلا عفاريت في الصور ولا دجالين. لكني أحببتُك وحاولتُ أن أدعم ما تريدين. أنتِ أيضًا ضحيتِ من أجلي كثيرًا، وصبرتِ كثيرًا، وانغمستِ رغمًا عنك في كتبي ومراجعي وروتيني الكئيب، ووُضِعت أمام اختبار تلو الآخر، وخرجت من كل واحد أقوى وأطهر. لن أجد زوجة أوفى منكِ يا سهير. امنحيني فرصة، بعدها سنتأكد حقًا من صدق هذه العلاقة، وسنختار بوضوح طريقنا معًا، أو طريقًا مختلفًا لكل واحد منا.

أعرف – أنا لاشين- أن قلب سهير أفلت دقتين لدى سماعها آخر عبارة نطق بها أسامة، أما قلبي أنا فتوقف تمامًا كما يتوقف في كل مرة أوقن فيها أنها تحبه.

ليتوقَّف إذًا، أنا ميِّت نظريًا على أي حال.

قالت سهير بصوت بالكاد سمعه عمها:

- ربما..

هتف العمُّ البشوش:

- نقرأ الفاتحة؟! لنقرأ الفاتحة!

ارتفعت الأكفُّ أمام الأوجه، واكتسى خدا سهير بالحمرة التي أتذكر المرة الأولى التي رأيتُها فيها، عندما أسقطتُ فوقي الكتب واعتذرتُ لي في خجل. أرى حمرة وجنتيها في كل مرة توسوس لي شياطيني، فأتذكر أنني كنتُ بشريًا، ولا بد أن أظل كذلك.

- .. ولا الضالين، آمين. متى تشتريان الدِّبل؟

نظرت سهير إلى عمها متسائلة، فقالت الحاجّة مريم:

- اسكتي يا سهير. كلنا نعرف أنك بعتِ دبلتك لمصاريف ولادة رانيا. لا بد أن يشتري لك عريسك دبلة وخاتمًا أيضًا.

- وحفل خطوبة، والخطوبة على أهل العروس، لذا دعني أنا –عمها- أرتب الأمر، ولأقيمَنَّ لها حفلًا يحكي عنه الناس سنواتٍ.

ضحكت سهير حتى دمعت عيناها، وكمراهقة بريئة ألقت نفسها بين ذراعي عمها، وللحظة رأيت عيني أبيها في وجهه. ابتسم أسامة ابتسامة أضاءت وجهه المظلم، ومحت أثر الأعوام التي زادها خلال العام الماضي فقط.

سهير لم تعش، وكذلك أسامة.. وكذلك أنا.

كلنا بدأنا رحلتنا في سيارة، ونمنا في أثناء الرحلة، واستيقظنا لنجد الدنيا قد قادت بنا إلى قرب النهاية، ثم تركتنا ورحلت. والآن، علينا أن نعرف أين نحن، وفي أي اتجاه نسير، وما إن كان الطريق يستحق من الأساس.

***

-٢-

نزل أسامة مع مهاب ليشتريا عشاءً بعدما لمَّح له شريف بأنَّ ثلاجتهم ليس بها ما يقدمونه للزوار المفاجئين. وقف الاثنان أمام مطعم المشويات، وأخرج مهاب محفظته وهو يقول:

- دعني أدعوكم أنا على العشاء يا دكتور. حلاوة الخطوبة.

- بل أنا الذي أدين لكم يا بني. ولك تحديدًا. لطالما كنت سندًا لسهير ولأبنائي. لو أنَّ لي أخًا حيًا..

دمعت عينا أسامة، وهي عادة نبتت مؤخرًا، إذ صار عاطفيًا سريع التأثر. مازحه مهاب:

- لا يا دكتور، لا زال أمامك طريق طويل شبكة وتجهيزات ونقاشة وزفاف وفستان. وفِّر مالك وسأدعوكم. دجاج مشوي بمشتملاته، أليس كذلك؟

طلب مهاب العشاء، وسار مع أسامة في الشوارع الجانبية الرطبة حتى يجهزوا الطلب. الشوارع ضيقة مظلمة آمنة، الوجوه تبتسم لأسامة، وترتفع الأذرع للتحية. ها قد عاد الرجل إلى وطنه، إلى شارعه، المكان الذي التقى فيه سهير أول مرة.

قال مهاب:

- اسمع يا دكتور. لقد جئت أعرض على الأستاذة قضية ماورائية. ما رأيك أن تشاركنا حلَّها؟

- كفاني ما ورائيات يا بني. أنتَ لم تر الشيطانَ جبر على هيئته الحقيقة(3). لا زال يزور أحلامي ويؤرقني. أنا لا أنام يا مهاب. لا أعرف كيف تحب سهير البحث في هذه الأمور. أعرف أنَّ لنا ثأرًا شخصيًا مع تلك الشياطين، لكنْ.. لقاؤهم مرعب حقًا ولا أصدق أنني نجوت منه.

حكى مهاب لأسامة ما حكاه لابنيه، وأكدّ له أن التقصي لن يتعدى لقاءاتٍ مع الشهود، ومع سائق الميكروباص.

- وماذا سيضيف هذا التقصي للأمر؟

- الأستاذة تعرف كيف تسأل الأسئلة الصحيحة، ومعها كاميرتها وأجهزتها. بالطبع سيضيف وجودها شيئًا لتوثيق أسطورة محليّة كهذه. لقد أخبرني شريف منذ أشهر أنها بدأت كتابًا عن الأساطير الحضرية المصرية. لو ساعدتها في ملء هذا الكتاب.. ستنجح في اختبار فترة الخطوبة. كل النساء لا يقاومِن مشاركة من يحبون اهتماماتهن.

صمت أسامة مفكرًا، ثم قرر أن التحري فقط لن يؤذي أحدًا، وفكرة الاشتراك مع سهير في كتاب راقت له بشكل خاص، هو الأكاديمي المحبُّ للكتب والأبحاث والتقارير. ثم تذكر شيئًا:

- إن كنت بارعًا هكذا في فهم النساء يا مهاب، لماذا لم تُرِنا شطارتك حتى الآن؟

- لن أريكم شيئًا بالطبع، هذه أشياء تُحسَد!

الكل يُلِح على مهاب في الزواج، خاصة بعد عثوره على وظيفة مُعِد برامج في قناة شهيرة، وعمله في التعليق الصوتي على الإعلانات وفي دوبلاج الأفلام الكرتونية، لكنه لا يشعر بشيء. خواء منذ غادر عمرو. واحد آخر وجد نفسه في منتصف طريق لا يعرف عنه شيئًا، لكنه قرر أن يكمله كما هو، بنفس باهتة، وذاكرة مختلطة، وروح مفقودة.

وصل الرجلان إلى نهاية الشارع حيث السور المكسو بالجهنمية، والسيارة العتيقة مقطوعة الإطارات الواقفة أمامه، ثم استدارا عائدين إلى المطعم، يسيران في الطريق نفسه، كلٌ في خواطره الخاصة.

***

-٣-

استيقظت سهير مبكرًا في اليوم التالي على مكالمة من أسامة.

- صباح الخير يا سهير. أستيقظتِ؟

غمغمت سهير نصف نائمة:

- يبدو كذلك. خيرًا؟

- ماذا ستفعلين اليوم؟

- المعتاد يا أسامة. دعنا نتفق على ألا نُمثل أننا مخطوبان ولا نعرف عن عادات بعضنا شيئًا. أنت تعرف أنني سأذهب إلى الستوديو ثم أعود في الرابعة وينتهي اليوم.

- ما رأيك أن أمر عليكِ عصرًا ونخرج؟

- إلى أين سنذهب؟

- إلى مكان أعرف أنك ستحبينه. موافقة؟

فكرت سهير لحظات، وتسللت ابتسامة على شفتيها، محتها سريعًا وقالت في برود:

- لا بأس. لنجرب.

في الخامسة مساء دق أسامة جرس الباب، وفتحت سهير ليجدها ترتدي بذلة نهاريَّة بيضاءَ، مع نظارة جديدة وردية الإطار، وتنتعل حذاءً رياضيًا. قالت في ارتباك:

- لا أعرف إلى أين سنذهب، فقلت أرتدي شيئًا مريحًا وأنيقًا في الوقت نفسه.

هتفت رانيا من مكانها على الأريكة وهي تتحاشى النظر مباشرة إلى أبيها:

- سمك لبن تمر هندي يا ماما. ما ترتدينه لا يتناسق مع بعضه.

هتفت سهير:

- بل رأيت على إنستجرام سيدة تقول أن البذلات الصباحية يمكن أن..

قال أسامة:

- لا تحتاجين إلى إنستجرام لتعرفي أن ذوقك لا يُعلى عليه. أنت فنانة في الأساس.

الحقيقة أنني –أنا لاشين- أشعر بتقلُّصٍ جهة المرارة كلما سمعتُ أسامة يغازل سهير. أعرف أن غرضه شريف وأنه دخل البيت –للمرة الثانية- من بابه. لكنهما لا يتعارفان الآن، إنما يتصافيان. الأفضل ألا يتظاهر أنَّ شيئًا لم يحدث.

نزل الخطيبان –شياطيني تضحك الآن، فألكزها لكزة معنوية- وركبا سيارة أسامة الشبيهة بالحوت الأزرق، وانطلقا في شوارع طنطا الضيقة المزدحمة حتى خرجا إلى طريق القاهرة الإسكندرية الزراعي. سألت سهير وهي تضمُّ حقيبتها العملاقة المعتادة إلى صدرها:

- إلى أين يا أسامة؟ لا أريد أن أتأخر.

- ماذا سيحدث لو تأخرنا؟ أنتِ معي.

- نحن غريبان الآن. لا أعرف ماذا دهى عمي كي يقترح هذا الاقتراح الغريب.

صمت أسامة في وجوم، فنظرت إليه سهير لحظات، ثم أخرجت من حقيبتها شيئًا.

- شيكولاتة؟ كورونا، التي تحبها.

ابتسم لها في مرارة، وأخذ منها القطعة المستديرة، ثم قال:

- سأدعوكِ على شاي في مكان غير معتاد إلى حد ما. وأتمنى ألا أفسد الخروجة.

الرجل مرتعب من أن يفسد افتتاحية الخطوبة، مما يعني أنه سيفسدها. هذه قوانين العالم. تابع أسامة الطريق وهما صامتان، بعد ربع ساعة أوقف السيارة جوار بنزينة عتيقة على الطريق تكتظ بسيارات الأجرة والعُمال، أمامها بائع شطائر كبدة، وسيدة نحيلة مسنة تقف خلف منضدة فوقها وعاء لحفظ الماء الساخن، وأكواب ورقية، وعلبة بلاستيكية فيها أكياس شاي وقهوة سريعة التحضير وكوب زجاجي فيه باقة نعناع.

ترجل أسامة، وتبعته سهير على وجهها ابتسامة حقيقية.

- كوبي شاي بالنعناع لو سمحتِ، في كوبين زجاجيين.

ثم استدار باسمًا إلى سهير وقال لها:

- لدينا مغامرة صغيرة الليلة. ماذا تطلقين عليها؟ مغامرة أم تحقيقًا؟

- لا أفهم؟

كان أسامة قد اتفق مع مهاب على ألا يخبر سهير بشيء، ووافق ابناه على أن يشتركا في المؤامرة، رانيا على مضض بسبب استبعادها منها، وشريف بترحاب كأنه بموافقته هذه يعوِّضهما عما عاشاه بسببه.

أخذ أسامة كوبي الشاي من المرأة الباسمة الودود، وقد أعطتهما قطعتي بسكوت لوكس أيضًا. وضع كل شيء على سقف السيارة، ثم حكى لسهير ما عرفه من مهاب وهما يسقّيان البسكوت في الشاي.

- ما رأيك؟ ندخل ونسمع من الناس؟

أفلت قلب سهير دقاتٍ متتاليةً وعيناها تلمعان حماسًا، كأنّه ألقى لها طوق نجاة. أعرف –أنا لاشين- أنها ملّت من تكرار الأيام التي تنتهي عصرًا، وتتكرر بحذافيرها كل صباح. هي كالمسجونة دون قضبان. كلام الناس من جهة، حرَجُها من علاقتنا من جهة أخرى، خوفها من أن تفسد حياتَها أكثر مما فسدت من جهة ثالثة، وأخيرًا رعبها من أن تتورط في شيءٍ ماورائي تضطر معه للاستعانة بي.

عندما كنت شيطانًا بالكامل لم تكن تخشاني، وعندما اقتربت أكثر للآدمية صرت بُعبُعَها.

- بالطبع يا أسامة! أريد أن أعرف سر هذا « الميكروباص.»

تأبطت ذراعه دون تفكير، فهي عادتها منذ أكثر من ثلاثين عامًا، وشعرت كأنها في الثامنة عشرة، يوم ذهب معها أسامة لأول مرة إلى المولد بعد زواجهما لتصور الزار والحَضَرات.

تضحك شياطيني، تدمع عيناي. لا بأس. لا يصح إلا الصحيح..

يدخل أسامة إلى البنزينة ويسأل على فتحي أبو هيف، الشابّ الذي اتصل بمهاب، فينادون على عامل هزيل يأتيه ممسكًا فوطة صفراء ومسَّاحة زجاج مثبتة إلى رشاش منظف.

سأل الشابُّ وهو يمسح يديه في ملابسه في حماس:

- أنت أستاذة سهير زاهر؟ وأنت؟ مهاب عمارة؟ لا.. أنت الدكتور أسامة! أنا أحبُّك يا دكتور وسمعت حلقاتك في البرنامج. لماذا توقفت عن الظهور فيه؟ آه.. المشاغل.. هي المشاغل. لي ابن عم يعمل مدرسًا، وهو مشغول مثلك. أعرف طبعًا أنك...

وظل يغني ويرد على نفسه، وسهير وأسامة يتبادلان نظرات باسمة، يفهمان من خلالها ساعات حديث طويلة في خلال ثوان معدودة.

يسمون شيئًا كهذا «العِشرة.» وهي شيء لا يزول ولو خبا بريق الحب.

- ... لا بد أن يعود البرنامج. هو تسليتي الوحيدة الآن، أسمع الحلقات القديمة طوال الوردية الليلية، بل وأشركت الرجال هنا في سماع البرنامج أيضًا. ثواني..

ثم نادى رجلًا آخر يُدعى هاني، فترك الإطار الذي كان يغطّسه في حوض ماء، وهرع إليهم. جرى التعارف سريعًا، فسأله أسامة:

- هل تعمل هنا منذ فترة طويلة؟

- منذ خمسة أعوام أو ستة. وحضرت الميكروباص ثلاث مرات.

حكى هاني أن أول مرة رأى فيها الميكروباص، طلب السائق منه أن يزوّد الإطارات بالهواء، ثم ملء الخزان بالوقود..

- كان الخزان خاويًا تمامًا. لا أعرف كيف وصل إلى هنا على هذا الحال. المهم، أنهى ما أراد ثم خرج من البنزينة ليقف على جانب الطريق. كنا ليلًا، ولا رُكاب على الطريق تقريبًا. وقف هناك، عند هذه الشجرة. هل تريانها؟

هز أسامة رأسه، والتقطت سهير بكاميرا الموبايل صورة للمكان.

- مر رجلان به، تحدث معهما طويلًا، ثم ركب واحد منهما فقط. ومكث نصف ساعة أخرى لم يركب فيها أحد سوى اثنين آخرين، بعدها انطلقت السيارة عدة أمتار ثم اختفت.

سألته سهير:

- كيف اختفت؟ تدريجيًا أم ابتعدت حتى لم تعد تراها؟

وأضاف أسامة:

- هل كان هناك ضباب على الطريق؟

أجاب هاني:

- لا. كانت ليلة صافية. واختفت السيارة يا مدام سهير فجأة. كانت موجودة ثم لم تعد موجودة.

- هل من شهود آخرين؟

- أنا وحامد الهلباوي وعلي حسنين، لكن الأخير ترك العمل منذ فترة. المهم اختفت السيارة، ثم في نفس اللحظة، رأيناها على الجهة الأخرى من الطريق، تظهر من العدم، وتنزل راكبًا واحدًا فقط من الثلاثة الذين ركبوا.

أضاف هاني أن الأمر تكرر في العام التالي، وقد تذكر هو الميكروباص الغريب (فولكس فاجن) من إصدارات السبعينيات، وسائقه المُسِن الأسمر الطويل،

بجلبابه الأزرق وطلبه المُتكرر؛ تزويد الهواء والبنزين.

سألت سهير:

- مَن ركب معه هذه المرة؟

- ستة. عاد منهم اثنان. كان في البنزينة ليلتها الحاجُّ مرسي، صاحب العقارين خلف البنزينة، ومنعني من أن أتساءل حتى عما يحدث. قال لي أنَّ للطريق أسرارًا ومسافرين لا يعلمهم إلا الله، والأفضل أن أترك كلَّ شيء كما هو ولا أحاول حتى التحدث مع السائق. عندما انتهى من كلامه كان الميكروباص قد ابتعد، ولم أحضر مروره في العام التالي لظرف عائليّ، وفي العام الماضي كان فتحي هنا، وقد حكيث له قبل أن تصل السيارة. فتحي لا يخاف ولن يمنعني من الحديث في الأمر كما يفعل الآخرون.

كان فتحي قد عاد حاملًا مقعدين لسهير وأسامة، فجلسا، واستلم هو من زميله خيط الحكاية فأكمل:

- قال لي هاني: يا فتحي، أمر هذه السيارة غريب. ما رأيك أن نمسك السائق ونستجوبه؟ الرجل سيأخذ الركاب ويختفي بهم، ولا يعودون بعودته. هل هو بسم الله الرحمن الرحيم؟ جنٌّ يخطفهم مثلًا إلى عالمه؟ هل يمكننا إنقاذ الناس من شرِّه؟ قلت له: أنا معك يا هاني، لننتظر ونتسلح تحسبًا لكونه مجرمًا عتيدًا أو شيئًا من هذا القبيل. أما لو كان (اللهم احفظنا) فسنمسكه ونغرس في جسده شوكة نخل، ونقرأ عليه القرآن حتى يحترق.

تذكرث سهير –وأسامة أيضًا- كيف يمكن تقييد الشياطين بحزام الشوك، وكيف قُيِّدت أنا مرات بالطريقة نفسها، فتحاشى كل منهما النظر إلى الآخر. قال أسامة:

- وهل ظهر؟

حكى هاني أن الميكروباص ظهر، ودخل به إلى البنزينة الخالية. أوقفه أمام مضخة وقود الديزل، وطلب (تفويل السيارة). مَن يعرف حكايته تشاغل بمطاردة البعوض أو مراقبة حركة النجوم أو الإصابة بالإسهال المفاجئ. اتجه هاني لمساعدته، ولم يفته أن يُمعن النظر إلى السيارة وما بداخلها. الميكروباص أبيض، تنجيده بنيٌّ فاتح، رغم أنه من إصدارات السبعينيات فحالته ممتازة. لا يعلق السائق أيَّ زينة دخل السيارة أو خارجها، على غير عادة السائقين عمومًا.

نزل السائق، فسأله فتحي متباسطًا وقلبه يرُج صدره: «**اسم الكريم؟ أظنني رأيتك من قبل؟**» فلم يُجب السائق. ألح فتحي وسأله عن بلده، فنظر إليه الرجل في شرود وأجابه بسؤال: «**إلى أين تذهب الليلة بعد انتهاء الوردية؟**»

قاطع هاني الحكاية وقال:

- كنت أنا واقفًا عن قرب، أسأل نفسي إن كان هذا الرجل من أبناء الحرام الذين –أستغفر الله- يستدرجون الشباب الصغير لكي.. أنتما تفهمان. هو مسنٌّ في عمر جدي، لكن بعض أبناء الحرام لا يتوبون ولو على فراش الموت. اقتربت منه ووضعت كفي على كتفه وسألته إن كان يريد شيئًا آخر غير الوقود، فطلب مني تزويد الإطارات بالهواء. بينما أفعل ما طلب، ظلّ الرجل يحدق إلى فتحي ويُلح عليه في السؤال عن وجهته.

سألت سهير:

- كان يريد أن يعرف فقط إلى أين سيذهب فتحي؟

أجاب الأخير:

- سألني عن طريقي. كرر هذه الكلمة كثيرًا وسط أسئلته. ما طريقك الليلة؟ أي طريق ستتخذ؟ هل تسافر على هذا الطريق عادةً.. إلخ. لولا كنا نعرف أنه غير طبيعي كنا ظنناه مجرمًا. دفع حسابه، ثم عرض عليّ أن يوصلني في طريقه. قلت له أنني لم أنتهِ من عملي بعد، فتدخل هاني وقال له أن في وسعه الانتظار وشرب الشاي معنا حتى موعد انتهاء الوردية. رفض الرجل وقال أن الطريق لا ينتظر، والسفر طويل ومتعب. أمسك هاني بُكمه وحلف أن يشرب معنا شايًا، لأنّ –كما قال- وجهه سِمح ويشبه قريبه الذي مات محترقًا في مسقط العمارة.

ابتسمت سهير ونظرت إلى أسامة الذي ابتسم بدوره. سأل الأخير:

- وشرب الشاي؟

- لا. أشار لي هاني إشارة اتفقنا عليها، فشغّلت القرآن الكريم بصوت عالٍ على التلفاز في حجرة العُمال. هرعت أفعل ذلك، وطفقنا نراقب وجهه. لا شيء. ظل ينتظر أن يعيد له هاني باقي حسابه وهو يعود ببطء إلى سيارته. استنتجنا أنه ليس من سكان تحت الأرض –اللهم احفظنا- وبقي أن نتأكد من أنه معوج السير يستحق الضرب والتسليم للشرطة.

تركناه يبتعد بالسيارة حتى توقف عند هذه الشجرة، وذرنا من خلف البنزينة لنسير بمحاذاة الطريق مُنحنيين وراء الحاجز الخرساني، ثم جلسنا نراقب ما سيفعله.

ظل واقفًا إلى جوار باب الركوب المفتوح، ينظر إلى المارة. سأله أحدهم إن كان ذاهبًا إلى كفر الزيات، فعاينه السائق بعينيه قبل أن يهز رأسه نفيًا. بعد قليل جاء رجلان، وسألاه إن كان ذاهبًا إلى كفر الزيات، ففكر لحظات وهو ينظر إلى وجهيهما جيدًا، ثم سمح لهما بالركوب.

سأل أسامة:

- إذًا هو ذاهب إلى كفر الزيات، وينتقي من يركب معه. على أي أساس؟

أجاب هاني:

- علمي علمك. انتظر هذا اليوم ربع ساعة تقريبًا، ثم زفر في ضيق وانطلق. رأيناه يختفي بعينينا هذه!

أضاف فتحي:

- كنا على مسافة عشرة أمتار تقريبًا عندما اختفى فجأة.

دوَّنت سهير ملاحظاتٍ في دفتر صغير، ثم مالت على أسامة تقول له:

- هل سننتظر قدوم الميكروباص أم تريد العودة مبكرًا إلى دسوق؟

- سننتظر طبعًا. لماذا جئنا إذًا.

ابتسمت سهير في رضا. هُرع فتحي في كرم شديد ليشتري شطائر كبدة، وجلس الأربعة يأكلون. نالت سيارة أسامة غسلة ممتازة، بعدها جلس فيها هو وسهير. شغَّل أسامة الراديو وأدار المفتاح حتى يجد ما يروق لهما. التشويش قوي لسبب مجهول، ولم يلتقط الراديو سوى همهمة بعيدة. قالت سهير:

- محمد منير. هل تتذكر هذه الأغنية؟

دندنت سهير بضع كلمات، ثم وجدت نفسها لا تتذكرها جيدًا.

- لا أتذكر يا سهير. ماذا دهى الراديو؟ كان يعمل جيدًا؟ هل تسرب الماء إلى..

مع صوت التشويش، شردت سهير في الليل والحقول المظلمة، والمحال المتفرقة على الطريق بأضوائها البيضاء المثيرة للغثيان والكآبة. تلتقط أذنا سهير الحساستان كل الأصوات، فتطمئن إلى أنَّ الصَّمتَ بعيد، والحياةَ تدور بشكل طبيعي. مدت يدها خارج النافذة والتقطت عدة صور. هي تعرف أن أسامة لا يجد ما يقوله فيتشاغل بالراديو، وهي أيضًا غير مستعدة لفتح أيّ موضوع. تقول لنفسها أنَّه يحاول، تقول لنفسِها أنَّه لا يعرف ماذا يفعل، ولا يحبُّ ما تحبُّ هي، لكنَّه يحاول. تقرر أنْ تؤجل كل لوم أو اعتراض اليوم، وتقنع نفسها أنها تفعل ما تحبُّ الآن، وعليها ألا تفسده.

أسامة أيضًا مرتبك. لا يغادر منظر الشيطان جبر عقلَه، لا ليل ولا نهار. لا يعرف كيف يمكن للمرء أن يعيش في عالم تجوبه هذه المخلوقات. لا عجب أنَّها مخفية عن البشر، لكن نصيبه أن يراها ويتورطَ معها ويسرقوا منه حفيده وحياته كلها.

منظر الحقول المظلمة يزيد دقاتِ قلبه. ينير مصباح السيارة الداخلي، لا لشيء سوى الاطمئنان. تسأله سهير:

- لماذا أضأت المصباح؟ سيؤثر على جودة الصور.

- بعض الضوء لن يضرّ يا سهير. أعتقد أنك التقطتِ صورًا كفاية.

- لا. لو كنت قد أخبرتني منذ البداية إلى أين سنذهب، لكنت جلبت معي كاميرتي وأدواتي.

- لو كنت أخبرتك لأفسدت المفاجأة.

- فكرة أن تتقبل الذهاب معي في تحقيق كانت لتُسعدني بالفعل، ودون مفاجآت. أنا الآن أوثق حدثًا لا يتكرر إلا كل عام، وليس معي سوى دفتر وهاتف محمول!

لم تكن سهير تتحدث في غضب، بل بصوت محايد تقريري، تحاول فيه إخفاء غضبها الحقيقي من أسامة على مُجمل أعماله. العلاقة على المحك لو لم يتصارحا. التنازل من الطرفين الآن لن يؤدي بهما إلى شيء.

لمحت سهير فتحي في البنزينة يلوح لها بكلتا ذراعيه، ويشير إلى الطريق وراءها. نظرت في المرآة فرأت ميكروباص فولكس فاجن يقترب في الظلام، لا ينير أيًا من مصابيحه.

- هيا يا أسامة، لقد وصل.

نزلت سهير على الفور، وأخفت هاتفها وراء باب السيارة لتلتقط به عدة صور متتالية، ثم اتجهت إلى البنزينة. ظل أسامة متجمدًا في مكانه دقيقتين، ثم أغلق الراديو والمصباح ونزل ليلحق بها.

الميكروباص أبيض ناصع، كل الكروم فيه يلمع كأنه خارج للتو من المصنع، وبلا لوحة أرقام.

وقف الميكروباص أمام مضخة الديزل، ونزل سائقه بجلبابه النظيف وعمامته. راديو السيارة يعمل بكفاءة، ويصدح منه صوت محمد منير.

«دارت بينا ريح الطريق، وشقيق بايده سالت دماء أخوه على الطريق..»

الأغنية كانت تذاع في راديو سيارة أسامة منذ أكثر من نصف ساعة. هل يُعقَل أن تذاع مرة أخرى ليلتقطها راديو الميكروباص؟

ذهب فتحي ليزود السيارة بالوقود، وسأل السائق:

- حمدًا لله على السلامة. طال الغياب يا.. قلت لي ما اسمك؟

أجاب السائق بلكنة صعيدية ميزتها سهير:

- الله يسلمك.

- لك عام تقريبًا منذ جئت آخر مرة.

نظر له السائق في حيرة ثم غمغم: «**عام..**» ونظر إلى سهير وأسامة. اقترب منهما وهو يحرك المفاتيح بين يديه وسألهما:

- إلى أين؟

قال فتحي:

- البيه والهانم من معارفي. قل لي إلى أين ستذهب أنت؟

- إلى هناك..

وأشار إلى الطريق المتجه إلى الإسكندرية.

«ضل الطريق بينا.. مشينا ما درينا..»

بشكل ما يتماهى صوت محمد منير مع حزن الحقول ليلًا، كأنَّه طميٌ يُلقي به النيل إلى قلب الأراضي السوداء فينبت طربًا. قال أسامة:

- سألك فتحي أين غبت طوال عام مضى. على أي خط تعمل سيارتك؟

- أنا (ألَقُّط) رزقي من هنا وهناك. لكني لم أكن هنا من قبل. يبدو أن الأمر اختلط عليه.

لم يبدُ لأسامة أن الرجل يكذب، لكن ما ضايقه فيه هو تحديقه المستمر في وجهه ووجه سهير، كأنه سينحت لهما تمثالين.

- يمكنني أن أوصلكما إلى حيث تريدان.

أجابت سهير:

- هل أنت بخير؟ أراك شاردًا أو مُتعبًا.

هتف فتحي:

- اشرب معنا شايًا. يبدو أن مضخة الوقود فيها عطل.

ثم غمز لهاني الذي أكَّد أن إصلاح العطل لن يتطلب وقتًا، وأنه لو انتظر قليلًا سيستطيع أن يملأ الخزان.

جلس السائق على مضض. لم تشعر سهير ولا أسامة بالبرودة والرعب المميزين لتواجد الشياطين. الصور عادية، والميكروباص نفسه طبيعي. هذا بشري، وليس ممسوسًا حتى.

قال هاني وهو يصب الشاي بنفسه من وعاء الماء الساخن ويذيب فيه السكر:

- سكر زيادة يا بلدينا، أليس كذلك؟ من الصعيد طبعًا، أجدع ناس. بني سويف؟

- قنا.

- آه.. أجدع ناس.

بدا لسهير أن الرجل قد قل شروده وغموضه، وبدأ يتكلم. فتحت فمها تسأله، لكنه باغتها:

- إلى أين تذهبان؟

أجاب أسامة:

- معنا سيارتنا.

نظرت له سهير نظرة ضيق جانبية، ثم قالت:

- لكنها تعطلت، فتوقفنا هنا عند فتحي. من معارفنا.

ظهر شبح ابتسامة على وجه السائق القسيم الأسمر المنحوت.

- إذًا سأوصلكما. إلى أين؟ أعرف أنكما لا تعرفان الطريق. لطالما ضللت كثيرًا أنا الآخر حتى عرفته.

هنا عرفت –أنا لاشين- أن سهير تنتوي الركوب معه، وعرفت هذا قبل أن تتضح الفكرة في عقلها حتى. أنا أعرف أن هذا الجالس أمامهما ليس شبحًا أو شيطانًا أو أيّ شيء. ليس ساحرًا ولا ممسوسًا ولا كائنًا متغير الهيئة ولا من السمائيين. هذا بشري، بشري فقط.

لكني لا أريد أن أتدخل مرة أخرى في حياتها. لا أريد أن أظهر هذه المرة بالذات، لكن.. ماذا لو كان هذا مجرمًا أو مخادعًا أو أي شيء؟ هل سيستطيع أسامة وحده الدفاع عنها؟

انتقلت بقدرتي الشيطانيّة ونقلت سيارتي معي بعد مائتي متر من البنزينة. المشكلة في الانتقال بسيارتي أو نقل الأجهزة عمومًا هو ظهور مشاكل خاصّة بالكهرباء والمحركات فيها. ثمة تداخل ما بين طاقة شياطيني وتلك الأجهزة والمحركات في أثناء الانتقال، لكني مضطر لنقل سيارتي معي الآن. لو أن سهير قررت الذهاب مع هذا الشخص لا بد أن أتبعها.

تجسدت بسيارتي، وراحت شياطيني تنقل لي ما حدث وأنا مغمض العينين.

هذا السائق يظهر على الطريق في مكان ما قبل البنزينة بخمسمائة متر، وقد واظبَ على زيارة المكان منذ عام 1977، عام صُنعِ السيارة التي يركبها تقريبًا. يقطع السائق مسافة سبعمائة متر فقط على هذا الطريق كل عام ثم يختفي إلى حيث لا تستطيع شياطيني تعقبه، وهذا غريب حقًا.

هل يعبر إلى بعد آخر مثلًا؟ ربما. لكن كيف؟

ينتقي السائقُ ركابه من الطريق، ويختفي بهم، في ثلاث وعشرين مرة عاد الرجل بكامل ركابه، وفي سبع مرات عاد دون أيٍهم. أما باقي السنوات، فكان يعود معه نصف الركاب تقريبًا، أكثر أو أقل.

ينزل الركاب عند الجهة الأخرى، ثم يختفي الميكروباص كما ظهر، بعد خمسمائة متر. يعبر الركابُ العائدون الطريق مرة أخرى، ثم يركبون سياراتِ أجرة عادية. في عدة مرات لم يعبر العائدون الطريق. بعضهم سار على غير هدى، وبعضهم ركب من الجهة الأخرى.

هذه هي تفاصيل ما كان يحدث منذ عام 1977 على طريق القاهرة الإسكندرية الزراعي وحتى الآن. مرة واحدة كل عام..

والآن، هل أرسل لسهير هذه التفاصيل؟ ماذا لو رأى أسامة الرسالة؟ ماذا لو أنها أوذيت من هذه المغامرة، أو فُقِدت وعجزت عن استعادتها؟

فكرت سريعًا، ثم قررت. أرسلت لها رسالة بالتفاصيل على واتساب.

أصدر هاتفها رنينًا، ورأت الرسالة. قرأتها سريعًا، ثم أعطت الهاتف لأسامة.

لم أتوقع هذا..

تصلب الرجل حينًا، بينما يثرثر فتحي وهاني مع السائق الذي ما انفك يطالب سهير وأسامة بتوصيلهما.

استأذن أسامة من المجموعة، وأخذ هاتف سهير وسار مبتعدًا إلى الظلام الممتد خارج أضواء البنزينة الشاحبة. ظل يحدق إلى الرسالة وضربات قلبه تتزايد. يشعر بضغط داخل عنقه، وترتعش كفه.

ثم أخيرًا اتصل بي وهو يستند إلى سيارته، ويحك بظفره ما خلَّفه كوبا الشاي على سقفها.

- ماذا تريد يا لاشين؟

- أريد أن أحذركما فقط.

- أنت هنا؟

- نعم.

- شكرًا على التحذير. ابتعد من فضلك.

- دكتور أسامة، لا تركبا مع هذا الرجل. ربما يكون مجرمًا..

- وأنا مترهل مسنٌّ لن أستطيع الدفاع عن زوجتي، أليس كذلك؟

- لم أقل هذا!

- ارحل يا لاشين. لا تراقب زوجتي مرة أخرى. مهما حدث.

ثم أغلق الخط. كنت أريد أن أذكِّره بأنَّها ليست زوجته، لكني ما كنت لأفعل على أيِّ حال. تهمس لي شياطيني:

«لا تتركها له يا آدم.. هو ليس أمينًا عليها. إن لم تشأ أن تتزوجها فلا بأس. امكث إلى جوارها واستمتع بحاجتها إليك، وببطولتك التي..»

- صمتًا!

ضربت المقوَد بقبضتي، فانبعج. أحيانًا أنسى أن شياطيني تستولي على عضلاتي وقت الغضب. انكسرت عظام كفي بالطبع، فلست كأبطال الأفلام من الممسوسين الذي ينطحون ويركلون بجسدهم البشري دون أن تتهشم عظامهم.

تلتئم عظامي، لكن قلبي لا يلتئم.

سهير في خطر محتمل.

عاد أسامة إلى المجموعة، ووجد سهير قد غيَّرت دفَّة الحديث تمامًا، والرجل ممتقع الوجه أمامها.

- إذًا أنت تكرِّر هذه الرحلة منذ سبعة وأربعين عامًا.

- منذ متى؟! في أي عام نحن؟

- 2024.

- كم؟!

وقف الرجل مشدوهًا، ونظر حوله. تعلقت عيناه بالشاشة المسطحة في غرفة العمال، وتفاصيل البنزينة التي يبدو كأنه يراها لأول مرة. كاد يفقد وعيه. أسنده هاني وأجلسه مرة أخرى، وهرع فتحي يحضر له ماءً.

سأل أسامة سهير همسًا:

- هل واجهته بما أرسله لاشين؟

- نعم. يبدو أنه لا يدرك ما يفعل.

- ربما لاشين هذا مخطئ. ربما رأت شياطينه شخصًا آخر. ربما يكذب كي يتدخل في شؤننا. ما كان لكِ أن تفزعي الرجل هكذا.

- أنا لا أفزعه يا أسامة، ولاشين ليس مخطئًا لسبب واحد، أن الرجل بشهادة الشهود يقوم بأفعال غريبة كل سنة! ما قاله لاشين يتناسب تمامًا مع ما يحدث. كان عليّ أن أواجهه وإلا جلسنا طوال الليل يطلب منا الركوب معه ونرفض نحن!

جلس أسامة متململًا، وفتحي يقول:

- أنت لا تتذكر ما تفعل إذًا، لكنَّك تعرف أنَّك من قنا، وبالتأكيد معك أوراق شخصيَّة، أليس كذلك؟ ما اسمك؟

- عبد السميع خلف. من مركز الوقف، قنا. ومعي أوراقي بالطبع. أنا رجل مستقيم السير وسجل مخالفات سيارتي ناصع البياض. ماذا تقولون أنتم؟ أنتم كاذبون!

قالت سهير:

- لماذا نكذب عليك. أخبرني، أين كنت قبل أن تأتي؟ هل تتذكر؟

نظر الرجل إلى الأرض الأسمنتيَّة المبتلة وفكَّر، ثم هز رأسه نفيًا. سأله أسامة:

- هل تتذكر حياتك عمومًا؟ بيتك، أهلك، ما حدث خلال السنوات الماضية؟

أجاب الرجل في حيرة:

- ولا أي شيء. لا أعرف سوى اسمي وعنواني.. لا.. ليس عنواني الدقيق.. أنا لا أعرف عنوان بيتي! المحافظة والمركز فقط! ماذا يحدث؟! أنتم كاذبون! ماذا فعلتم بي؟!

لف هاني ذراعه حول كتفي الرجل، وناوله زجاجة ماء، حدق إليها الرجل مدهوشًا، ثم قرب عينيه من غطائها ليرى تاريخ إنتاجها، فيتذكر أن كل ما حوله يؤكد أنهم لا يكذبون، وأنهم في عام 2024 بالفعل. غمغم أخيرًا:

- آخر ما أتذكره أن السادات ألقى خطبة في إسرائيل.. وفاة عبد الحليم حافظ..

قالت سهير:

- هذه أحداث من عام 77. هل تتذكر ما قبل ذلك؟

- نعم بالطبع. أتذكر الحرب، زواجي من ابنة خالي، أذكر بيت أهلي و... نعم أتذكر، لكني لا أتذكر شيئًا آخر من وقتها. كيف مرَّ كل هذا الوقت؟!

استأذن هاني في إلقاء نظرة على السيارة، فتبعته سهير ثم أسامة، وأخيرًا السائق نفسه وفتحي. تحلَّقوا حولها، ووقفت سهير على أطراف أصابعها تنظر من النافذة إلى ما في الداخل، وتلتقط الصور. سألها السائق عما تفعله، فأجابت:

- معذرة. نسيت أن أوضح لك من نكون وماذا نفعل.

حكت له سهير، وظل مشدوهًا ينظر إليها، ثم فجأة ضيق عينيه وسألها:

- إلى أين ستذهبين الليلة؟

همس لها أسامة:

- يبدو أنه يعاني خرف الشيخوخة.

- لا تخبرني أنه مجرد شيخ خرف وأن الأمر ليس فيه جانب ما ورائي!

- لن أقول هذا. أنا فقط أبدي ملاحظة على شروده يا سهير! لا تتحفزي ضدي هكذا!

شرد السائق مرة أخرى وقال شيئًا عن (هوجة الحرامية)، وهي انتفاضة الخبز التي وقعت في مصر عام 1977 احتجاجًا على رفع الأسعار.

- كنت في باب الخلق يومها، وكادوا يعتقلونني مع أني لم أشارك في شيء.

نزل فتحي من السيارة ممسكًا بسلسلة ذات دلّاية معدنية. أول ما رآها السائق انتزعها من يده وهتف:

- اتركها، هذا دليل أنني حي.

ميز الواقفون السلسلة، فهي واحدة مما يرتديها المجندون في أثناء الحرب وفترات التجنيد. رفعها عبد السميع أمام أعينهم فلمعت، وظهر اسمه محفورًا عليها مع رقم وفصيلة دمه وديانته.

عبد السميع خلف سليمان ماهر..

قال فتحي:

- ركز يا حاج عبد السميع، إلى أين ستذهب الآن؟

أشار إلى اتجاه الإسكندرية.

- لأي غرض؟

- طريق السفر غرض في حد ذاته.

نظرت سهير إلى أسامة، وقبل ينطق، قالت:

- لماذا لا تأخذنا معك؟

ابتسم عبد السميع وسألها:

- إلى أين؟ هل تعرفين وجهتك؟

قال أسامة في ضيق:

- سهير؟ تعالي لحظة..

أكملت سهير:

- أنا لا أريد الذهاب إلى أي مكان، أريد فقط أن أعرف إلى أين أنت ذاهب، وكيف تختفي. هل تفهمني؟

- سهير.. تعالي لحظة أريدك في أمر.

هتفت سهير:

- أسامة، أنا أريد الذهاب معه، وإن كنت لا ترغب في أن تأتي لا بأس. لكني لن أفوّت فرصة كهذه خاصة وأنني أعرف مَن هو وما ينتظرني. هذه أول مرة يحدث فيها أن يركب معه أحد وهو يعرف ما سيحدث.

- أنت لا تعرفين ما سيحدث يا سهير!

- قال لاشين أنّ الركاب يعودون في أغلب المرات.

- أغلبهم يا سهير! لا كلهم!

- الاحتمالات في صالحي.

- بل ضدك! أنتِ لست شخصًا عاديًا يا سهير! قدراتك هذه قد تؤثر على الرحلة وربما تضيعين إلى الأبد.

- وربما أفعل بها شيئًا مفيدًا يا أسامة، وأعثر على مَن لم يعودوا.

- لن تذهبي! على جثتي.

- ليس لك كلمة عليّ الآن يا أسامة!

وقف هاني وفتحي بينهما ينقلان أعينهما بينهما في تسلية واضحة، بينما دار عبد السميع حول السيارة وجلس خلف مقودها شاردًا، ينظر إلى الطريق المظلم.

ظلت سهير تنظر إلى عيني أسامة، وينظر هو إلى عينيها في تحد، كأنهما ينتظران أن ينهار واحد منهما معلنا انتصار إرادة الطرف الآخر. دون أن تحرك عينيها من على وجهه، مشت سهير إلى السيارة وهي تسأل:

- مَن يريد أن يأتي معي؟

قال فتحي:

- أنا أريد.. لكن..

- لا بأس. انتظر هنا. دقائق ونعود.

نظر هاني إلى أسامة ثم إلى سهير وقال:

- سآتي معكِ يا أستاذة. العمر واحد، ولا يصح أن نترك الحريم مع رجال غرباء في طريق لا يعلمه إلا الله.

مشى أسامة إلى باب الميكروباص وقال لسهير الجالسة في المقعد خلف السائق:

- انزلي يا سهير. دعينا نتفاهم أولًا.

- لن أنزل.

قال السائق في شرود لهاني:

- هل أصلحت المضخة؟

نظر هاني إلى سهير، فأومأت له. راح يملأ الخزان، ثم أخذ الحساب من عبد السميع، وشغَّل الأخير المحرك وأضاء الكشافات. لا زال محمد منير يغني..

«ضل الطريق بينا.. مشينا ما درينا..»

كاد هاني أن يركب جوار السائق، فصاح الأخير:

- لا. أنت تعرف الطريق. لا يمكنك أن تركب.

- أي طريق؟

- لا تركب. لست ذاهبًا إلى حيث تريد.

ثم أشار إلى فتحي وأكمل:

- يمكن أن يركب هذا.

مالت السيارة بقوة جهة اليمين إذ صعد أسامة وجلس جوار سهير على الأريكة، ثم قال:

- انتظر يا فتحي هنا. هيا يا (أسطى) لننتهِ من هذا الأمر سريعًا.

زفرت سهير، ونظرت عبر النافذة إلى فتحي وهاني، وأربعة عمال آخرين ينظرون لهم من بعيد في توجس. تحركت السيارة ببطء حتى خرجت من البنزينة، ثم سارت في الطريق المظلم وتزايدت سرعتها تدريجيًا. همست سهير بدعاء السفر وهي تعني كل كلمة فيه.

-«..اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى. اللهم هون علينا سفرنا هذا واطوِ عنا بعده. اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل. اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنظر وسوء المنقلب..»

زادت سرعة السيارة أكثر.. 60.. 65.. 70..

نظرت إلى أسامة فوجدته ينظر إلى الطريق أمامه وتتحرك شفتاه بشيء. لا بد أنه دعاء السفر أيضًا، أو ربما آيات من القرآن. يخطر لها فجأة أنها قد تتسبب في موته بسبب ما تفعل. هل ستغفر لنفسها لو حدث هذا؟

هتفت:

- أسطى عبد السميع. أريد أن أنزل.

نظر لها أسامة، ثم نظر إلى عيني السائق في المرآة الأمامية وهو ينظر إلى سهير عبرها ويقول:

- مستحيل. الطريق ينتظركما..

***

-٤-

فور أن تحركت السيارة وفيها سهير وأسامة، تحركتْ خلفها. أرصد سرعتها وما يحيط بها وحالة السائق الجسديَّة والنفسيَّة.

الرجل بلا ذاكرة تمامًا الآن، يقود بشكل آليٍّ. لا. ليس بلا ذاكرة، الصور تتعاقب في عقله مشوشة سريعة، صور لا يمكن أن تكون ذكرياته هو.

دقات قلبه منتظمة.

سهير متوترة، تخشى على زوجها من مغبَّة جموحها.

أسامة يشعر بغثيان ودوار، حانق، ضغط دمه مرتفع، رأسه يكاد ينفجر، لكنه ليس خائفًا.

الطريق يتسارع من حولنا. يراني السائق في المرآة، ولا يكترث لحظة. أسمع سهير تطلب منه التوقف فيرفض. أزيد سرعة سيارتي وأتجاوز الميكروباص، ثم أدور بالسيارة لأوقفها بالعرض كي أقطع عليه الطريق. أتوقف وأنتظر الارتطام المريع.

الميكروباص لا يبطئ سرعته. كشافاته المستديرة تقترب، تتسع، العالم يصير في عينيَّ بقعتين برتقاليتين متوهجتين.

التصادم وشيك.

تهتز سيارتي اهتزازة خفيفة، ثم يسود الصمت والظلام.

الميكروباص اختفى. كاد يصطدم بي، لكنه اختفى في لحظة.

لا أرى سهير ولا تراها شياطيني. أين ذهبت؟ أين؟!

يغوص قلبي في قدماي، ولأول مرة أشعر بالعجز التام.

***

حصريا على روايات وكتب عربية وعالمية
https://t.me/riwayat2025

الفصول التالية حكتها سهير زاهر لكاتبة هذه الكتب مباشرة، وأنا -لاشين- عرفتها بعدما حكتها صغيرتي.

***

لكنَّ رحلات أخرى -ربما أكثر أهمية- تبدأ دون ترتيب، بل وأحيانًا دون علم صاحبها، وتنتهي.. عفوًا، غالبًا لا تنتهي حتى وإن ظن صاحبها أنها كذلك.(4)

---

(2) العدد الرابع عشر- الزوهري.

(3) الكتاب الرابع عشر- الزوهري.

(4) كتاب الطريق

الفصل الثاني

المكان: طريق السفر.

الذشمَة.

الزمان: 2024

أرى الطريق يجري على جانبي الميكروباص. أنظر إلى أسامة في ذعر، فيمسك يدي بقوة ويهمس: لا تقلقي.

لكنّي قلِقة.

كشافات سيارة ضخمة تقترب من خلفنا، ثم تمر من جوارنا كالبرق. سيارة لاشين. لا أرى وجهه ولا أريد أن أراه. يسرع لاشين بالسيارة حتى يتوقف أمام الميكروباص على بعد مائة متر تقريبًا ويقطع الطريق.

أصرخ، أدفن وجهي في صدر أسامة لا شعوريًا، فيلف ذراعيه حولي ويضمني بقوة.

أكرر لنفسي أنه لن يحدثَ لي شيء وأنا مختبئة في صدره.

لن يحدث لي شيء.

دقات قلبه المعتلّ تتزايد. السيارة تسرع أكثر.

ثم تبطئ وتسير بنعومة. الصمت يمزق طبلتي أذني.

أبعد وجهي عن صدر أسامة وأنظر حولي. الطريق المظلم الخاوي ممتد أمامنا إلى ما لا نهاية. الحقول على الجانبين. كل شيء كما كان تقريبًا، لكن سيارة لاشين غير موجودة.

لقد عبرنا.

المفترض لمن يراقبنا أننا اختفينا، ثم ظهرنا على الجهة المقابلة من الطريق. لكننا لم نظهر بعد.

نحن في الرحلة الآن.

صوت التشويش في الراديو توقف، وصوت عبد الحليم حافظ يغني:

«عدّى النهار، والمغربية جاية تتخفى ورا ضهر الشجر..

وعلشان نتوه في السكة، شالت من ليالينا القمر..»

أغنية النكسة المؤلمة بكلمات عبد الرحمن الأبنودي ولحن بليغ حمدي. الأغنية اللعينة التي تصف كل شيء، كل شيء حقًا. في أي وقت تسمعها تشعر بالحزن، وأن النهار مر والظلام قادم لا محالة.

ظلام ليل بلا قمر.

تيه مستمر.

حزن شفاف برائحة الوطن.

نكسة لا تنتهي..

قال أسامة:

- أين نحن يا أسطى؟

- على طريق السفر يا دكتور. نقترب من الدشمة.

- الدشمة؟

نعرف أنا وأسامة وكل مَن يسافر على الطريق الزراعي أن على امتداده دُشَم حربيَّة وسط الحقول، كانت تُستخدم في الحروب السابقة التي خاضتها مصر في العصر الحديث، والدشمة هو بناء دفاعي محصَّن، عبارة عن غرفة كبيرة تحت الأرض، فوقها سقف مُموَّه يظهر للناظرين المدققين. بعض هذه الدُشَم لا زالت موجودة، لكنها مهجورة خاوية، لا يفكر المرء فيها مرتين وهو يمر بها في الطريق. مجرد أشياء أخرى شهدت على عصر قديم، وهزائم وانتصارات ولَّى عهدها.

لكني لا أرى أي دُشَم.

ثم سمعت صوت طلقات رصاص، وأبصرت الوميض في الظلام قبل أن أرى مصدره.

يقول عبد السميع:

- هذا هو كامل الهواري. (دُفعة). بلدياتي.

سأله أسامة:

- وماذا يفعل هنا؟

- هو هنا منذ زمن طويل. منذ الوَكسة.

- النكسة قصدك.

- نقول عليها الوكسة.

لا تزيد سرعة الميكروباص الآن عن الخمسين. كأننا في نزهة والرجل يريدنا أن نستمتع بالمناظر الخلابة. يمد أسامة معصمه نحوي، فأرى ساعته معطلة. أنظر إلى ساعتي وأجدها على الحال نفسه. هاتفي المحمول متوقف، متجمد لا تتحرك شاشته ولا يُغلق حتى.

تومض أعمدة الإنارة على الطريق ثم تنطفئ تمامًا، ثم تختفي. معالم الطريق تختلف. لا وجود للحواجز الخرسانية ولا للافتات الإعلانات ولا لأغلب المنازل متعددة الطوابق. مجرد طريق ريفي غير ممهد، تحفُّه المزروعات المظلمة على الجانبين.

يهدر صوت من بعيد:

- قِف مكانك!

ثم صوت طلقات رصاص متتالية. لا أعرف أنواع الأسلحة، لكن ربما يكون هذا هو صوت الرشاش مثلًا.

ثم نسمع صوت الزئير. لا، ليس زئيرًا حيوانيًا معتاد، ولا زئير الديناصورات في فيلم حديقة العصر الچوراسي، ولا زئير الكائنات الفضائية وهي تتهاوى أمام البطل الأمريكي، ولا زئير الشياطين في أفلام طرد الأرواح الشريرة.

هذا زئير مختلف، زئير شِبه بشري إن كان الإنسان يزأر.

يوقف عبد السميع السيارة عند جانب الطريق ويقول:

- الدشمة. حيث كامل يحمي أرضه.

سأل أسامة:

- تقول أنه بلدياتك، فهل لديه أرض هنا في الغربية؟

- مَن قال أننا في الغربية؟ الأرض أرض الله.

على ضوء كشافَي السيارة، أرى الحقل المظلم والدُشمة في منتصفه، يحيط بها الظلام. شخص يتحرك أمامها، ثم يدخلها. شيء آخر يتحرك في الظلام ولا أميزه. رجل آخر أكثر ضخامة، وصوت الزئير معلق وسط الصمت المزعج.

يقول لنا السائق بلهجته المميزة أن علينا أن ننزل (دلوَكيتي) أي الآن.

- لماذا؟ ماذا سنفعل؟

- الطريق ينتظركما. وطالما لا تعرفان إلى أين ستذهبان، فلا تسألا عن سبب التوقف ولا النزول.

- ستأتي معنا؟

- لا.

أنظر إلى أسامة، فيهز كتفيه بمعنى أننا جئنا، ومن الحمق أن نظل في الميكروباص ولا نفعل شيئًا. يفتح أسامة الباب وينزل، ثم يمد يده يساعدني على النزول. كفي في كفه تشعر بطمأنينة عصفور صغير في عشه العالي المخفي.

صوت عبد الحليم يردد الأغنية الكئيبة الحبيبة.

صوت انفجار.

صوت الزئير ينقلب إلى عواء، ثم أرى غبارًا كثيفًا يتصاعد من أمام الدُشمة. غبار لا دخان.

نسير نحو الرجل في الظلام، ظلانا طويلان أمامنا، والسيارة خلفنا تقف بعرض الطريق الخالي.

يرانا الرجل الذي قال عنه عبد السميع أن اسمه كامل، فيرفع بندقيته ويكاد يطلق الرصاص لولا رفع أسامة ذراعيه إلى أعلى وهتف:

- لا تطلق النار. نحن.. نحن زوجان.. مسافران.. ضللنا الطريق فقط.

زفر كامل كأن همًا انزاح عن كاهليه، وأنزل سلاحه. الرجل يرتدي زيًا عسكريًا قديمًا جدًا حتى أنه اهترأ عند الركبتين، وجهه لفحته الشمس وحفرت

تجاعيده حتى الجمجمة. يبدو لي في عمر عبد السميع.. لا.. بل أكبر.

- من أين جئتما؟

يجيب أسامة:

- من طنطا. جئنا بالميكروباص الواقف هناك.

ينظر كامل إلى حيث أشار أسامة، ويمشى خطوتين مضيقًا عينيه ثم يقول:

- أين هو؟

أفطن إلى أن السيارة غير مرئية بالنسبة له ربما بسبب الظلام، فأقول سريعًا:

- يقف بعيدًا. لا عليك. كنا.. كنا نبحث عن مكان نبيت فيه حتى الصباح، وسمعنا صوت طلقات الرصاص. هل أنت بخير؟

يجلس الرجل أرضًا أمام الدشمة، ويشير لنا أن نجلس وهو يقول:

- احذرا فقط أن تجلسا على هذا التراب.

على مسافة قليلة من باب الدشمة كومة غبار عالية ذات رائحة نتنة. ربما هي سماد متحلل.

أجلس أنا وأسامة على الأرض مباشرة، ولتذهب بذلتي البيضاء إلى داهية.. أنا نفسي في داهية الآن. ألاحظ أن وجه الرجل ينزف، لكن ليس هذا هو الجرح الوحيد، فوجهه خارطة متشابكة من الجروح القديمة والمتوسطة والحديثة. هذا سبب انطباعي الأول عن عمق تجاعيد وجهه. لكنه مُسن، وأكبر من عبد السميع. لا شك في هذا. قبل أن يخرج صوت أسامة من فمه، سمعنا صوتًا بعيدًا. صرخة غير بشرية. عَبَسَ كامل وهو يغمغم:

- اثنان في ليلة؟ هذا غريب.

يهب واقفًا ويصوب السلاح في كل اتجاه حوله. يسأله أسامة وهم يهم بالوقوف:

- ما هذا الصوت؟

- إنهم يطاردونني منذ سنوات. لن ينسوني ولن يتركوني.

- اهدأ. مَن هُم؟

أساله وأنا أتكئ على ذراع أسامة لأقف:

- لمحنا مَن يطاردك ونحن في الطريق إليك. أين هو؟

يشير الرجل إلى كومة الغبار بفوهة بندقيته ويقول:

- ها هو.

ثم يستدير ويطعن وريقة على الأرض كأنه يقتلها. ما هذا الجنون! يسأله أسامة:

- يمكن أن نساعدك. ما هذا الشيء وكيف تحوّل إلى غبار هكذا؟

يزفر الرجل، يولينا ظهره ويسير ببطء شديد نحو مصدر الصوت البعيد، فنسير وراءه. بندقيته مرفوعة، مصوَّبة. ذراعه يرتعش.

- الحكاية طويلة. بدأت عام 67، وكنت وقتها لم أتمّ الثامنة عشرة بعد..

***

المكان: مكسّر الفناجيل.

الزمان: 5 يونيو 1967

أكرر لنفسي: أنا كامل، أنا هنا دفاعًا عن بلدي، عن أرضي، عن شرفي. لست في البلد، بيتي ليس قريبًا، لو صرخت لن يهرع إليَّ أبي، لا لأنني بعيد عنه، بل لأنني كبرت الآن وصرت مجنَّدًا. لم أعد «الوَلَه» كامل، بل جندي مجنَّد، الـ« نَفَر» كامل علوان حميدة.

هذه الأرض الخشنة التي تشبه شقف الفخار ليست أرض قريتنا الطينية الرحيمة الباردة. لو اتكأت عليها بكفي لذبحته. ربما لهذا أسموا المكان «مكَسَّر الفناجيل»؟

أنا المجنَّد كامل. سلاحي ليس ما اعتاد أهل بلدتي حمله. ليس «البندقية أم ترباس» التي علمني عمي عليها صيد الذئاب في الجبل، بل بندقية آلي 7.62 لا يعني هذا أنني اصطدت ذئبًا، لكني أخبرت الجميع أنني فعلت هذا. اصطاد عمي ذئبًا في ليلة، وجرَّه إلى القرية لنلعب بجثته، وحلمت أن أفعل مثله يومًا.

أنا لم أصطد ذئبًا من قبل، ولا يعرف أحد هذه المعلومة.

أنا وجماعتي تحت القصف منذ نصف ساعة. طائرات العدو تمطرنا بلا توقف. هذا ليس عدلًا قسمًا بالله. عندما أعلنوا التعبئة واستدعاني العمدة قائلًا بصوته الأجش الطيب: «الجهاديَّة عايزاك» توقف قلبي عن الدق دقيقة كاملة. الجهادية عايزاني أنا؟ مَن أكون؟ هل سمعوا عن أكذوبة صيدي الذئب؟ هل سأقف أمام حضرة الصول «حَصُول» وأقول له أنني لا أتقن الرماية ولم أصطد أرنبًا من قبل؟

لكن عندما استفقت وعرفت أنَّ الجهاديَّة تستدعي الجميع، تخيلت أن المعركة ستكون كالتالي. سأقف أمام العدو وجهًا لوجه. الإسرائيلي الخسيس يحمل بندقيته أمامي، أضربه بكعبها، أنخزه بالسونكي، أرمي السلاح وأستخدم قبضتيَّ لأعجِنَ وجهه. هذه هي الحرب التي أتخيلها. رجل لرجل. حتى لو لم أصطد أحدَ ذئاب الجبل، فأنا قادر تمامًا على سحق سحالي الصحراء هذه.

لكن المعركة ليست كما تصوَّرت يا أمَّه. أعتقد أن الحاجَّة نعمات الآن تتابع الأخبار على مذياع العمدة مع أمهات الجنود. تعرف أنني قد لا أعود، لكني سأستشهِد. سأكون بطلًا.

بطلك الآن يا أمَّه يختبئ من الوابل النازل على أم رأسه من أعلى. رجل مقابل طائرة. ابن آدم مقابل متفجرات تُلقى عن بُعد.

الثعبان ينفث سمه في وجوهنا، ثم يفر مختبئًا.

يقول لي حمدي زميلي الذي يحمل رشاش كلاشنيكوف روسيًا مُعتَبَرًا:

- هذه هي عقيدة أولاد الحرام هؤلاء. مشاة بعدد لا يُذكَر، يختبئون كالعيال ولا يواجهون أبدًا، كلُّ شيء مُدرَّع حتى طبق الأكل، الهجوم بدبابات مهما كان صِغر الهدف. مجرد عيال، يحرقون بيوت النمل، يسحقون نحلة واحدة بأقدامهم القذرة الضخمة ولا يكتفون حتى لو اختفت تمامًا وسُوِّيَت بالأرض. عيال مجانين ابتليَ العالمُ بهم. عيال تعشق الهدهدة و(الدلَع الماسخ). ومَن لا يقبل الدلَع! وأمريكا تمنحهم بلا رادع.

حمدي متعلم، مثقف. أنا (أفُكُّ الخط) لكنَّ إخوَتي سيكملون تعليمهم في مصر، وسأبقى أنا لأرعى أرض أبي معه. هذا كان الاتفاق حتى طلبتني الجهاديَّة. لا.. حتى وقفت هنا عاجزًا أمام المصائب التي تتساقط فوق رؤوسنا..

ومن أمامنا.

لم نتلق تدريبًا كافيًا لضيق الوقت، لم أر الشيء القادم تجاهي إلا مرة واحدة من قبل. وسط الدخان الكثيف والنَّار والصراخ، أرى شيئًا ضخمًا يتقدَّم. الصوت وحده يزُج أمعائي في بطني.

يمسك حمدي ذراعي ويصيح بشيء لا أسمعه. أتحاشى النَّظر إلى حمدي، لأنَّ وراءه يرقد إبراهيم محمد محمد حواس من مركز دَرَاو، أسوان. لا أعرف أين ذهبَ نصفُ جسده الأيسر، ولا أريد أن أعرفَ. يكفي أنَّني الآن أحفظ اسمه، ولو عدت سأزور أهلَه وأخبرهم أنه قَتل ذئابًا كثيرة، وسأوصي الجميع ألا يخبروا أحدًا أنَّه لم يطلق رصاصة من سلاحه، فقد كان أول من استشهد منا.

الشيء الضخم يقترب. الصراخ يتعالى.

أنا كامل، لست في أرض أبي، لكنَّها أرضي، أرضنا، حتى وإن كانت مغطاة بشقف الفناجيل.

أطلق الرصاصَ على الشيء. حمدي يجذبني إلى الخلف كي أتحرك معه، ولا أمكث مكاني.

برج الدبابة يشقُّ الدخان. الصرخاتُ تزيد مع تقدمها. لماذا؟ أعرف أنَّ الدبابة لن تتمايل وهي تدوس الأجساد الطاهرة، فهم أصغر بكثير من أن يؤثروا في هذا البدن المدرع، لكن من الصرخات أستنتج أن بعضها كان حيًّا حتى سحقته.

تتخيل أمي الحاجَّة نعمات الشابَّة الجميلة أنَّني الآن أفجر هذه الدبابةَ بمن فيها. أنَّني أصوب قاذفاتٍ نحو الطائرات التي تحوِّم حولنا كالنسور. لكنَّي لم أقتل ذئبًا يا أمي. أمَلُك في باقي إخوتي أكبر.

أعدو مع حمدي تجاه عربة جيش. يصيح فينا سائقها ويشير بذراعيه أن نجري أسرع.

هل هذه رأس حامد صالح أبو السعد، مركز بلقاس دقهلية؟

كنا نحفظ أسماء بعضنا وعناوين مساكنا عن ظهر قلب. اتفقنا أن نتزاور بعد الحرب، لكننا نعرف أننا لن نفعل، ونأمل في أن ينجو أحدنا ليخبر أهل الشهداء أنهم حاربوا.

نحن لم نحارب، لا لأننا جبناء، بل لأننا لم نُمنَح الفرصة. أقسم لك يا أمَّه أننا لم نكن جبناء.

أصيح في حمدي:

- هل سنفِر؟! لا! لن أترك أرض المعركة!

- لا مناص من الانسحاب. ما الفكرة في أن تموت الآن وأنت لم تفعل شيئًا بعد؟ هذا انسحاب يا كامل لا فرار. يجب أن نستجمع قوانا مرة أخرى. ما يحدث خيانة. هيا!

- لكن..

هتف مينا مكرم، من أبو تيج أسيوط من خلف مقود العربة:

- جاءتنا أوامر بالانسحاب، لكن المركبات لن تكفي لنقل كل الأحياء. الكل يتراجع ولا نعرف إلى أين سنذهب أساسًا.

أقفز إلى العربة، أنظر حولي وألمح مَن يزحف على الأرض الوعرة. أريد أن أعرف مَن هو، حتى أخبر أهله أنه كان بطلًا واستشهد واقفًا، لكن حمدي يدفعني إلى الخلف لأجلس. أرى عادل حمدي رجب، من عتاقة في السويس، يركب معنا، ومعه سلاح مثل سلاحي، ومجموعة قنابل يدوية (رُمَّان). يهتف حمدي:

- هيا يا مينا. لا وقت.

أقول له:

- لكنَّ في العربة متسعًا لآخرين.

- لو صادفنا أحد سنأخذه. هيا يا مينا أصلح الله حالك.

يتحرك مينا بالسيارة، تتأرجح بنا بعنف. أصيحُ فيه أن يتمهَّلَ كي أعرف من أولئك الشهداء هناك. هل هذا رشدي؟ أعرف رشدي قناوي جيدًا، ذلك ذراعه الذي حملني ليُخرجني من قناة الري التي سقطت فيها وأنا الرابعة، وكان هو في الثالثة عشرة. ياما كان عايق رشدي يا أمَّه.. كدت أقفز لألتقط ذراعه العزيز، ذراع صديقي وجاري ووِلد أبوي.

أمسك بي حمدي مرة أخرى وأنا أصرخ:

- بيمِين لأخلّي الراقد أكتر من الواقِف!

تهديد أهوج. مَن أهدد؟ الدبابات والطائرات والقذائف والصواريخ؟ نحن بلا ثمن يا أمّه. مجرد «جِتت» مُسجاة في كل صوب.

يبتعد ذراع رشدي أمام عينيّ والسيارة ترمَح بنا. صفير الصواريخ تهوي من أعلى يغطي على صوت بكائي. أنا كامل المجنَّد أبكي كـ«الوَلايا».

***

الشمس تغيب. الصحراء شاسعة. أهزُّ زمزميتي فلا أجد فيها إلا القليل. يُخرج عادل تعيينه الميري؛ علبة فول و(قراقيش) تكسر الفكّ من صلابتها. وزَّع علينا الطعام، فليس مع أحد غيره شيء يؤكل. لقد باغتنا العدو اللعين دون أي استعداد، وأحمَد الله على أن عادل استطاع جلب شيء معه. قال حمدي:

- كُلوا. لا نعرف إن كنا سنجد وقتًا للأكل غير هذا.

أنظر إليه متسائلًا، فيوضِّح:

- مَن يضمن أن العدو لن يهاجم هذا المكان؟

نظرت إلى السماء بلون الكدمة. هل سيضربون ليلًا؟! ولمَ لا. ستار آخر من الأستار التي يحبون التخفي وراءها. (فَرُوجات) جبانة، تنقر وتهرب.

الطعام يقف في حلقي، فأتبعه برشفة ماء ساخن واحدة. لا أعرف متى سنصل، لكن مينا يقول أن أمامنا بضع ساعات لا أكثر حتى تظهر القاعدة، أو حتى نجد مكانًا نحتمي فيه.

الكثبان عالية هنا، المدفع الرشاش المثبت في نهاية العربة صار مصفرًا من الغبار، وكذلك شَعرُ عادل الفاحم ووجه حمدي الأسمر. كدت أنعس كي أختفي قليلًا من هذا العالم، لولا أني سمعت صوتًا من أعلى. لا.. ليس صاروخًا، ولا طائرة حربية.

هذه مروحية..

أشرت إليها، فقال حمدي:

- مروحية سيكورسكي. إحدى لعب الأمريكان الذين يراضون الأوباش بها.

غمغم مينا:

- أتمنى لو أنها تحمل إمدادات لهم فقط.

أصيح أنا:

- لا! إنها تتوقف.. تحلق بالقرب منا!

بحثت عن مدفع أو قناص فيها فلم أرَ شيئًا. السماء صارت بلون النيلة الزرقاء. الشمس قلامة ظفر في الأفق. قال حمدي في قلق:

- إنهم يُنزِلون شيئًا.

زاد مينا السرعة، فصحت في عادل وأنا أصوب بندقيتي الآلية نحوها وقد كدت أفقد عقلي:

- ارمِ عليهم قنبلة! اضربهم بالرشاش!

- اهدأ. ربما لا يروننا.

ضيقت عينيّ، ورأيت أن ما ينزل من الطائرة رجال. شيء غريب فيهم لم أتبين ما هو وقتها. طمأنت نفسي أنهم مجرد رجال، ونحن في سيارة تنطلق بسرعة ستين كيلو متر في الساعة كما يقول مينا.

لكن الأربعة الذين نزلوا من الطائرة يعدون خلفنا الآن! أيُعقَل؟

- أسرِع يا مينا!

جلس عادل خلف الرشاش الآلي في العربة وصوَّبه نحو الرجال، وأطلق حمدي طلقات متتالية نحوهم من سلاحه. أما أنا –الذي لم يقتل الذئب- لم تحملني ساقاي وأنا أرى تفاصيل الذين يعدون خلفنا. إنهم رجال ضخام، مدرعون بالكامل. هذه دروع لم أرَ مثلها من قبل. ليست صدريات واقية، بل دروع جلديَّة ومعدنيَّة كاملة. لأيِّ غرض؟ وكيف يَعدُون بهذه السرعة مع ثقل أوزانهم وأوزان ما يرتدونه؟

الأغرب، وما كاد يوقف قلبي، أنَّ الرصاصاتِ التي أصابتهم أسقطتهم للحظاتٍ، ثم عادوا يعدون من خلفنا كأنَّ شيئًا لم يحدث.

تغيب الشمس، ويتحول الأربعة إلى ثلاثة عمالقة سود يتبعوننا.

من فوقنا تحلِّق المزيد من المروحيات، تتجه في اتجاهات مختلفة.

يصيح حمدي:

- ما هذه المخلوقات؟!

استدار عادل ونزع فتيل (رُمَّانة) فألقاها نحوهم وهم على بعد أقل من عشرين مترًا وراءنا. انفجرتْ على الفور مثيرة سحابةً من الغبار، ودفعتِ السَّيارةَ للأمامِ حتى كِدنا نَسقط منها. سأل مينا وهو يَسعل:

- ماتوا؟!

دققت النَّظر إلى سحابة الغبار. الظلام منعني من رؤيةِ أي شيء. غمغم حمدي وهو يعقد حاجبيه:

- هل تسمعون هذا الصوت؟

صوتٌ زئير غريب، كأنَّه صرخات بسم الله الرحمن الرحيم يُعذَّبون في نار جهنَّم. الصوتُ مسموع يرجُّ الرمال رغم صوت العربة العالي. احتياطيًا، صوبتُ بندقيَّتي تجاه العدو وأطلقت. عادل يَنهرني ويحذرني من إهدار الذخيرة. إن لم تنفع القنابل وطلقاتُ الرشاش مع هذه الأشياء فلا شيءَ سينفع معها.

ابتعدنا أكثر، وابتعد الصوتُ. يبدو أنَّنا نجونا بشكل ما.

نظر مينا إلى مؤشر الوقود وقال:

- لا أعرف كم سيكفي الوقود.

سأله عادل:

- متى سنصل إلى وجهتنا.

قال مينا بكلمات مدغمة:

- لا أعرف.

حدقنا إلى المرآة الأمامية المغبرة لنرى عينيه الشاردتين في الظلام أمامه، وفطِنَّا إلى أن مينا لا يعرف إلى أين نتجه، لذا لا يعرف كم سيكفينا الوقود.

كل ما نعرفه أنَّنا نتجه غربًا. إلى أين؟ لا نعرف حقًا..

***

جاوزتِ السَّاعة منتصفَ الليل بقليل.

العربة مغروسةٌ في الكثبان.

مرت علينا ساعةٌ تقريبًا ونحن نحاولُ إخراجَ العربة من الرمال. نحفر، يضغط مينا دوَّاسة البنزين. تدور العجلات وتنفث الرمال فوقنا ونحن ممددون في يأس على الأرض.

لن نخرج من هنا.

ينزل مينا ويرتمي أرضًا في حنق. يصرخ ويركل الإطار بحذائيه الميري.

أربعة رجال صُفر، مهزومون، فارُّون، محكوم عليهم بالإعدام.

قال حمدي وهو ينظر إلى السماء:

- ما الذي أنزله علينا أولئك الشياطين؟

نظر إليه عادل وغمغم:

- لا بد أنهم فرقة صاعقة مثلًا. يختارونهم ضخام الأجساد.

- لا. لا.. هذه الدروع.. هذا الصوت.. مقاومتهم للرصاص.

- ماذا تعتقد إذًا؟

- لا أعرف.

أقول لنفسي: عفاريت؟ جنٌّ؟ سِحر؟ لن أقول هذا أمام حمدي، سيسخر مني. لكن هذه المخلوقات ليست من لحم ودم. شرعت أردد آية الكرسي مرارًا، وأنا أراقب مينا جاثيًا يحاول تحرير العجلات مع أنه يعرف أننا حاولنا كثيرًا.

ثم سمعنا الصوت المرعب. صوت وحيد ممطوط حزين مُعذَّب مخيف. هبننا واقفين، استعدَّ كل منا بسلاحه ونحن نقف في دائرة، كل منَّا يصوب سلاحًا في اتجاه، حتى اتضح لنا أنَّ الصَّوتَ آتٍ من الشرق.

هتف حمدي وهو ينظر تجاه ظل ضخم يقترب ماشيًا:

- تعلمت من متابعة العدو مبدأ: أطلق ثم أحكم التصويب. أطلقوا الرصاص.

وأطلقنا عشوائيًا ونحن بالكاد نرى القادم، بعد ثوانٍ رفع حمدي يده لنتوقفَ ونرى النتيجة. انقشع الدخان، ورأينا الشيء يقترب أسرع في غضب.

جرينا، ولا نعرف إلى أين، لكن مينا هتف وهو يجري:

- تفرقوا. سيتبع واحدًا منّا فقط بالتأكيد.

فتفرقنا لكننا حافظنا على اتجاه واحد. يبدو أنَّ الشيء اختار عادل لسبب ما. هل يذكر أنه هو من ألقى عليه القنبلة؟ هل هو الكائن نفسه؟

أجري، ومن لحظة لأخرى أنظر خلفي. درع الكائن محترق عند الصدر. ترى أين الثلاثة الآخرون؟

ألقى عادل قنبلة خلفه نحو الشيء. انبطحنا أرضًا والقنبلة تنفجر في الكائن، وربما في عادل نفسه. نهرول نحوهما ونحن نطلق الرصاص على الشيء. ينقشع الدخان ونرى عادل يحبو مبتعدًا، ثم يصوب بندقيته نحو الكائن. قبل أن نصل إليه، يهوى الشيء المربع فوقه، ونسمع صوت طلقة وحيدة مكتومة.

- عادل!

نمطر الشيءَ البشعَ بالرصاص. لا يتحرك، فقط يجثم فوق عادل الذي لا يظهر منه سوى طرف ساق واحدة. يصعد مينا فوق الجسد العملاق ويضرب مؤخرة رأسه أسفل خوذته بكعب البندقية وهو ينادي على عادل.

أحاول وحمدي إبعاد الثقل عن (الدفعة)، تطيح ضربات مينا بالخوذة فتتدحرج بعيدًا.. وينكشف رأسه.

لم أرَ شعرًا، ولا لحمًا ولا دمًا. بل طينًا. طينٌ بنيٌّ طريٌّ لامعٌ. تراجعنا خطواتٍ إلى الخلف. التفت إلينا الشيء الطينيُّ. عيناه طينٌ في طين، أنفه أجعد ذو فتحتين غير متساويتين. فمه شق عرضي تبرز منه أسنان كالحصى. هذا تمثالُ طينٍ غير متقن، رائحته خبيثة للغاية.

أحمد الله على الليل الذي أخفى عنّي باقي التفاصيل.

فتح فمه، وانقض على كتف عادل الذي لم يصرخ. لقد مات قبل دقائق من وزن المسخ.

سحب مينا ما تبقى من قنابل في حزام عادل بسرعة، وابتعد مسرعًا يطالبنا بالفرار.

أعتقد أنني صرخت وأنا أعدو، أتبع حمدي الذي يدور لنعود إلى السيارة حيث الرشاش الآلي. قد تنفذ ذخيرتنا في أي وقت الآن.

نحن لم نحارب يا أمَّه، ولم نتدرب تدريبًا كافيًا، ولا نعرف مِن العالم إلا حدود قرانا ونجوعنا. لقد أخِذنا من الدار للنَّار. كنت أظنُّ أنَّ الجنود دائمًا رجالٌ أشداء يعرفون ما لا نعرف. بمجرد أن يرتدوا الزي الميري يتحولون إلى أبطال. يستشهد الواحد منهم برصاصات وقنابل وقذائف، ويبقَى جسده بعد هذا كاملًا،

جميلًا، باسمًا.

كيف أخبرك يا أمَّه أننا سنعود أشلاءً في كفن؟ كيف أخبرك يا أبي أنك ستدفن ساقي مع ذراع محسن وفروة رأس سيد وأسنان مصيلحي في قبر واحد؟

***

العربة ليست وحدها. لقد قلبها واحد من الكائنات، وجلس على جانبها شاردًا. فرد حمدي ذراعه فتوقفنا. همس:

- لنفكر جيدًا. هذا الشيء مدرع لسبب. الدرع هو ما يقيه لأنه مجرد طين.

قال مينا:

- لا أعرف بأمانة كيف نتحدث عنه كأنَّه شيء حقيقي ونتباحث أفضل الطرق للتعامل معه.

- إنه حقيقي يا مينا، وقتل عادل وسيقتلنا. لا يهم ما هو الآن. أطلق ثم أحسن التصويب. علينا أن نخلع عنه خوذته أو درعه ثم نمطره بالرصاص.

قلت:

- أرى أن نبتعد. نختبئ على الأقل حتى الصباح.

- إنهم يعرفون مكاننا بطريقة ما يا كامل. لن يتركونا حتى الصباح.

صمت مينا حينًا يفكر، ثم قال:

- لديَّ فكرة. لكن صاحب الفكرة مَن سينفذها. اتفقنا؟

غمغم حمدي:

- هذا يعتمد على الفكرة. لكن لنتفق أيضًا أنها إن كانت فكرة خرقاء سنرفضها.

- هذا عدل كاف. لنفجِّر السيارة بهذا الشيء فوقها.

نظرت أنا وحمدي إليه مستفسرين، فأكمل:

- سأطلق الرصاص على خزان الوقود.

قال حمدي عاقدًا حاجبيه:

- الليل يا مينا، وقلة كفاءة التصويب قد يلفتان نظره إلينا قبل أن تنفجر السيارة. ثم.. لا زال في الصحراء اثنان غيره.

- سنقتل من يقابلنا منهم يا حمدي. لن ننتظر حتى يجتمعوا علينا. هذا أفضل.

- وما الخطة بعد تفجيره وفقداننا السيارة وما فيها؟

- السيارة ضاعت. انظر كيف تهشمت وانبعجت من ثقله؟!

كنت أسمعهما وأنا أراقب الشيء. خرجت آخر عبارة من فم مينا في حنق واضح بصوت أعلى قليلًا من الهمس الذي كنا نتداوله، فالتفت رأس الشيء نحونا، وقام ببطء. سمعنا صوت معدن السيارة كأنما يصرخ لينبهنا. جذبت كُمَّي حمدي ومينا، فرأيا الكائن يهم بالمشي المتكاسل نحونا.

- الآن! غطياني!

صاح بها مينا وانطلق يجري نحو الوحش والسيارة وهو مُنحنٍ، بينما نقف أنا وحمدي نطلق الرصاص لنعطل المسخ ونثبته جوار السيارة قدر الإمكان.

ما أن اقترب مينا بما يكفي، حتى ركع يطلق الرصاص على خزان الوقود. مرَّت ثوان ثم انفجر الخزان وأمسك اللهب في كتلة الطين العفنة. صرخ وزأر وهمهم وهو يدور ويتدحرج على الأرض. على الجهة لأخرى مينا يزحف ببطء نحونا وقد أصابته النيران. عدونا نحوه. خلعت قميصي ورُحت أضربه به كي أطفي النيران، بينما يجذبه حمدي من تحت إبطيه إلى ما خلف أقرب كثيب رملي.

مينا مصاب بشظية معدنية كبيرة بين لوحي كتفه.

هممت بانتزاعها فنهرني حمدي. قال أننا لن نستطيع إيقاف النزيف الناجم عن الفجوة التي تسدها الشظية الآن. فقد مينا الوعي من شدة الألم ومحاولته كتم الصراخ كي لا يجذب المسخين المتبقيين. أم لعلهم ثلاثة؟ قاتلُ عادل بدا حيًا عندما فررنا.

مكثنا متكورين ساعة أو أكثر. مدَّت النيرانُ ظلَ الكثيب خلفنا، فصرنا واحة مظلمة حزينة وسط صحراء برتقاليَّة مضيئة.

لا زال مينا يتنفس. لا زال حمدي يضغط فكيه ويرتجف غضبًا. النيران تخبو تدريجيًا. رائحة الوحش البشعة تتسرب في الهواء حتى تختفي. قام حمدي أخيرًا واتجه نحو حطام السيارة والكائن. ترددت قبل أن أترك مينا وأصحبه.

على الأرض ما تبقى من درع الشيء البشع. يحركه حمدي بطرف حذائه، فأرى غبارًا يخرج منه. لا أثر لعظام أو بقايا لحم حتى. نظر لي حمدي، فقلت:

- كأنه.. كأنه طاجن فخار احترق حتى صار تربًا. هذا الشيء كان طينًا بالكامل.

- كيف؟! مِن أين جاء وكيف يتحرك؟! مستحيل!

- لكنّه أمامنا الآن يا حمدي. المهم أننا عرفنا أنّه يموت لو احترق، أليس كذلك؟

- وكيف سنحرق الباقين؟! في الصحراء عشرات منهم، ألم تر المروحيات التي اتجهت إلى كل مكان؟

- نختبئ إذًا حتى الصباح، ثم نفرُّ سيرًا. ربما نصادف فارين آخرين ونتكاتف.

- لا. سنتحرك الآن. الليل أكثر أمنًا من النهار، ولا طائرات للعدو فوقنا الآن.

عدنا لمينا، فربطنا جذعه بقميصي كي نثبت الشظية، ومسحت على شفتيه ببعض الماء، ثم تبادلنا حمله أنا وحمدي ونحن نتجه إلى ما ظنناه الغرب.

***

تحوّم طائراتُ سحالي الصحراء فوقنا كما تحوّم الحداياتُ فوق الحقول، تبحثُ عن الفئران المختبئة.

نحن فئران يا أمّه.. لا.. مينا بطل. وعادل بطل.. وبرهان وحميدة وصلاح وعثمان.. كلهم أبطال.. كلهم..

أنا الفأر الوحيد الذي ما كان ليفعل ما فعل عادل ولا مينا ولا حمدي حتّى. لولاهم لكنتُ الآن جثّة مستسلمةً تحت جنزير دبابة نَجِسةٍ.

مات مينا قبل ساعتين. لم يصرخ، ولم يقلْ شيئًا. استفاق ونظر نحونا لدقائق، ثم أغمضَ عينيه ورحل. ظهري ملتهبٌ من الشمسِ التي مشينا فيها حتى انتصف النهار. قميصي غارقٌ بدماء مينا. هل أتركه أم أنزعه عنه لأرتديَه؟

فرغتِ الزمزميّة من الماءِ. لو لم تقتلنا الوحوشُ لقتلنا الظّمأ والجوعُ. أين نحن؟ لا أعرف..

لسنا مختبئين، لا يوجد ما نختبئ وراءه، لكنّنا لا نستطيع المشيَ في الصّحراءِ أكثرَ مِن هذا. نجلسُ تحتَ قميصِ حمدي المفرودِ فوقَ رأسينا ورأسِ مينا. باقي جسدِه مسجًى في الشمسِ.

هزيمُ الطائراتِ يمزّقُ السّماء. يَعلو تدريجيًا حتّى لتَظنَّ الصوتَ لن يتوقفَ عن الارتفاعِ حتى يُفجر رأسَك.

سيارة تقترب. سيارةٌ تحمل خزانَ ماء! يُخرج حمدي رأسه من أسفل المظلة ليدقق النّظر. تتوقفُ السيارة، ويترجّل منها جنديٌّ مصريٌّ. ما أنْ ينزل حتى يتهاوى أرضًا على ركبتيه، ويميل بجِذعه حتى يلامس رأسه التراب. أرى جنديًا آخر مِنّا يعدو نحوه خارجًا من مكان ما. يركع إلى جواره ويهزه. يبدو أنّه كان

مختبئًا. يقول لي حمدي:

- انتظر أنت هنا. سأذهب لأتبين الأمر.

يحمل حمدي سلاحه ورمانتين في حزامه، ويعدو بجذع عارٍ وهو يهتف:

- ما الأمر يا دُفعة؟

يقول له الجندي الآخر شيئًا لا أتبينه من بُعد المسافة. يركع حمدي والجندي الآخر إلى جوار الثالث المتكور على الأرض، ثم يقوم حمدي ويدور حول السيارة ليقف على الجانب الآخر منها. السيارة تتمايل نوعًا. في المقصورة شخص آخر.

صوت طلقة رشاش. الجندي الذي كان مختبئًا يفترش الأرض ميتًا. يقوم ذلك المتكوِّر على نفسه ويركب السيارة مرة أخرى، بينما حمدي يضرب الرصاص على المقصورة. اضرب ثم أحسن التصويب.

أهبُّ واقفًا وأنا أصيح:

- حمدي! مع السائق واحد منهم! وحش! اهرب!

يصعد حمدي فوق الخزان، ويمطر المقصورة بالرصاص. لو كنت مكانه لفررت. إلى أين سأفرُّ؟ لا يهم. لكنَّ حمدي مقاتل حقيقيٌّ. لن يموت قبل أن يلحق بالعدو أكبر ضرر.

يؤمن حمدي أنَّنا (انسحبنا)، بينما أؤمن أنا أنَّنا (فررنا).هذا هو الفارق بين المقاتل والفأر.

يخرج الكائن بصعوبة من السيارة، فيقفز حمدي فوقه. أراه يتشبث بخوذته حتى يخلعها ويسقط معها. المشكلة أن بندقيَّة حمدي سقطت منه. أجبِر ساقيَّ على العدو لنجدته. قلبي يكاد يتوقف وأنا أطلقُ النَّار على الكائنِ عشوائيًا فلا أصيبه. أنا مرتعب.

- أنا آتٍ يا حمدي!

أسمع صوتَ طلقاتِ رصاصٍ، أميز أنها ليست من بندقية صديقي. يقوم حمدي ويدور حول الخزَّانِ مرة أخرى. يخطط إلى أنْ يفصل بينه وبين الشيء مسافة معقولة ليستطيع التصويب إلى رأسه. لكن ليس مع حمدي سلاح! إلامَ يخطط؟

الكائن يدور معه.

لماذا لا يتدخل السائق سلبًا أو إيجابًا؟

أطلق الرَّصاصَ على الكائن من الخلف، تصيب رصاصاتي ظهرَه وساقيه. أهتف في نفسي: لماذا لا تصوب نحو رأسه العاري أيها الجبان؟ هل تخاف أن تقتله؟!

قال لي عمي مرَّة أنَّ إتقانَ الرماية بالسلاح شيءٌ، والقدرة على القتل شيءٌ آخر. أرى حمدي وظهره للسيارة، والكائن يرفعه بيد واحدة إلى أعلى، ثم يلكم وجهه بقبضته الصخرية.

- لا يا حمدي!

يداي ترتعشان وأنا أصوب نحو رأس الكائن محاذرًا أن أصيب رأس حمدي، محاولًا أن أسرع كي لا يضطر حمدي لفعل ما يفعل الآن.. لكنه ينزع فتيل القنبلة اليدوية بالفعل.

أجري مبتعدًا، ثم أنبطح أرضًا، ويزُجُّ الانفجار الصحراء.

حمدي كان يحاول الابتعاد عن الكائن كي يرمي نحوه القنبلة، لكن مناورته تحولت إلى مهمة فدائيَّة..

يتحول انبطاحي إلى بكاء طفل يضرب الأرض بساقيه وذراعيه. أرتمي على ظهري وأصرخ:

- لا يا حمدي! لا!

يسيل الماء من الخزان المكسور ليصل إلى جسدي المسجى. الماء مختلط بدماء حمدي الطاهرة ورماد الوحش النَّجِس. أقوم وأجري في غيظ إلى المقصورة، لعلي أجد مَن أفرغ فيه غضبي. الزجاج مهشم وجنديٌّ في زيٍّ مصريٍّ ملقًى على المقعد ينزف، لكنه حيٌّ.

أجذبه حتى يخرج. ألقيه على الأرض وأجثم فوق صدره ألكمه. يهتف بي بصوت واهن:

- كفى يا ابن عمي.. كفى..

- لست ابن عمك ولا أعرفك.

- لست خائنًا أقسم بالله. كنت خائفًا فقط. وعدوني بالنجاة.. وعدوني.. لم.. أكن أعرف.. أن.. خائفًا.

أطلقت الرصاص على رأسه، فخمد. لقد عشَّمه العدو بالنَّجاة لو لذهب معهم لاصطياد الفارِّين. كانَ خائفًا، وكذلك أنا.. لكنِّي لم أكن لأخونَ إخواني ودُفعتي

وبلدي.

تحت كل فأر من هو «أفأر» منه.

ضحكتُ وأنا أمسح دماءه عن ذقني وصدري العاري. عدتُ إلى حمدي والشيء الذي تحوَّل مرة أخرى إلى غبار رغم أنَّه لم يحترق هذه المرة. انفجر فقط.

أجر جثمان حمدي (ليست جثمانًا كاملًا عمومًا) وأعود به إلى مينا. أضعهما جنبًا إلى جنب وأجلس إلى جوارهما منتظرًا أن يأتي كائن آخر، أو تنزل عليَّ قذيفة، أو يحلَّ عليَّ غضب من الله.

مراتٍ فكرت في الانتحار، لكني استغفرتُ اللهَ العظيم من كلِّ ذنب عظيم. تيممتُ بالرمال وصليت، أجهشت بالبكاء. حفرت ودفنت صديقيَّ، ثم فكرت في أنْ أعود لعادلَ وأدفنه. لكنِّي منهك تمامًا. ظمآن..

ظمآن إلى حد أنَّني حلمت أنَّني زحفت تحت وهج الشمس إلى سيارة الماء، ورحت أنهل من الماء المُدمم حتى ارتويت. ظمآنٌ إلى حدِّ التهام سحلية ضخمة.

أتمنَّى لو كانت هذه حقًّا هلاوس المحتضر، لا حقيقة أنكرتها نفسي حتى حولتها إلى كوابيس.

تمنيت هذا وأنا أشعر بطعم غريب بشع في حلقي، وأشعر ببلل صدري وركبتي سروالي. هذا عرق، وذاك طعم الظمأ لا أكثر.. لا أكثر.

في الليل أرى ظلًّا عملاقًا يقترب مني، يتوقف عندي. أميز رائحته البشعة. أقول لنفسي: استسلم. لكن جسدي يفعل شيئًا آخر. يرفع سلاحي ويفرغ آخر ما فيه نحو الشيء الذي ترنح قليلًا ثم انتصب واقفًا مرة أخرى. كيف أطلقت النار وأنا مستسلم؟ أنا تعبت..

يأست.. لأنتهِ من كل طلقاتي إذًا وأمث بلا سبب آخر للمحاولة.

ثم أنام، وأصحو في الصباح التالي وأجد نفسي حيًّا بعد. لم يكن هذا حلمًا أو هلوسة. بندقيتي فارغة، وآثارُ حذائي الكائن الضخمين محفورةٌ في الأرض إلى جواري. لقد تركني الشيء. لفظني كأنَّ معدته لم تتحمل جبنًا كجُبني.

هذا كائن ينتقي الرجالَ فقط.

ومشيث.. مشيث وأنا أعرف الآن أنَّني شربث بالفعل. مشيث وأنا أردد أسماء الشهداء وما سأقوله لأهلهم من قصص بطوليَّة عنهم.

- يا أم حمدي، ابنك بطل. فجر نفسه في مسخ إسرائيلي، ولم يجبن لحظة. يا أم مينا.. يا أم عادل.. يا أم منصور.. يا أم...

***

وصلت، ولا أعرف إلى أين وصلت وكيف فعلتُها. وجدني مصريون من جيشنا، ونقلت إلى المستشفى الميري. بعدما تحسنت حالتي، وظنوا أنّني شفيت مما قد يؤثر على حالة عقلي، سألوني مرة أخرى عما حدث، فكررت ما حكيت من قبل.

- لقد رموا علينا الأنجاس كائناتٍ غير بشرية! مسوخًا من طين! لا يموتون إلا حرقًا أو تفجيرًا! لا زال الكثير منهم هناك يقتلون أبناءنا. لن يصدق أحد وجودهم إلا لو رآهم!

ولم يرهم أحد، ولم يصدق أحد وجودهم.. فأحالوني للتقييم العقلي، حيث صدر تقرير بعدم ملائمة حالتي الذهنيَّة للخدمة، وسرَّحوني..

وها أنا أعود إلى بلدي، مكسورًا، محملًا بالعار. لو صدقوني لغفروا لي. كنا نحارب مسوخًا مدرعة. لم نر رجلًا مثلنا.. ليس فيهم رجال بالطبع. مجرد مخلوقات بشعة حديدية أو طينية نتنة، تضرب وتختفي. تشكك البني آدم منا في عقله وفي أخلاقه.

لقد حاربنا يا أمّه ولم تُحسَب لنا حربًا.

***

مرت عشر سنوات منذ الوكسة. تزوجتُ وطلَّقتْ زوجتي. لم تتحمل امرأة الزواج بمجنون. كنت ابن أبي الأكبر، ومن سيتحمل مسؤولية الأرض معه ومصاريف إخوتي. كنت بِكرَ أمي. كنت شابًا صغيرًا، في الثامنة عشرة، والآن أنا على مشارف الثلاثين. مجذوب القرية الذي ذهب إلى الحرب وانهزم، وعاد يخرف نائمًا ومستيقظًا عن الوحوش التي لا تموت.

وانتصر جيش مصر، وعبر القنال، وهزم أبناء السحالي.. لكن هل انتهت الحرب حقًا؟ لا زلت أستيقظ من نومي على صوت الطائرات وزئير الأنجاس. لا زال الماء المختلط بدم حمدي يبلل صدري، وطعم السحلية يمرر حلقي.

يقولون أنّنا انتصرنا. ربما.. لكن هم مَن انتصروا، أنا لم أنتصر. سحالي الصحراء لم تخرج بعد من أرضنا ومن أراضي جيراننا.

هذه هدنة يا كامل. لعلها فخٌ كفخ عربة الماء. أسير في طرقات القرية أقول للعيال:

- سيعودون. سيعودون يا محمود، وأنت يا صادق.. لا تنس. أسمع أصواتهم. أنصتوا!

فيرمونني بقشر الخضر وريش الدجاج وزِبل الحمام.. ويضحكون. يعيدني أبي آسفًا إلى البيت في كل يوم بعد فضيحة. رأيته ذات ليلة يضع رأسه بين كفيه ويندب حظه فيّ، ويتساءل كيف سيجد لأخواتي البنات عِرسانًا.

لست مجنونًا. أنا آسف يا أبي. آسف يا إخوتي..

خرجتُ إلى الطريق بعدما نام الجميع. جريت كي لا يراني أحد فيعيدني. كان لأبي ابنٌ مجنون، ومات. لن يتذكرني أحد بعد ذلك. سينسونني كما نسوا أنَّ العدو يتنفس هواءهم وينفثُ السُمَّ فيه.

جلست على الطريق طويلًا. الجبل عند الأفق يشيح بوجهه، لا يريد أن يراني.

توقفت سيارة بيضاء على جانب الطريق. لا أعرف من أين أتت أساسًا. أطل منها شاب أسمر قسيم، وسألني:

- مسافر؟

- نعم.

- إلى أين؟

- بلاد الله يا ابن عمي.

- لا تعرف إلى أين؟

- .. لا أعرف.

- تعالَ اركب يا دُفعة.

تساءلت بيني وبين نفسي كيف عرف أنني كنت دفعة في يوم. لا يهم.. لا شيء يهم. ركبت إلى جواره، سألني مرة أخرى:

- هل تعرف طريق سفرك؟

- لا.. سِر بنا.

تعارفنا، وعرفت أنَّه خدم في الجيش، ورفع أمامي سلسلة فيها شريحتان معدنيتان مثل التي سلَّمتها قبل تسريحي. تحركتِ السَّيارةُ على الطريق، وأظنُّني غفوتُ لحظاتٍ، ثم فتحت عينيَّ على طريق سفر لم أره من قبل. النَّخيل مقصوص بطريقة تختلف عن تلك التي نقصُّ بها نخيل الصعيد. أين نحن؟

- نحن على طريق سفر يا كامل يا ابن عمي. طالما أنت مسافر بلا وجهة، فدع الطريق يختر وجهتك.

صوت شادية يغني في الراديو:

«أمانة عليك يا مسافر بورسعيد. أمانة عليك لا تبوسلي كل إيد..»

- قل لي، أيُّ طريق هذا؟

- الطريق الذي ستجد فيه ما تريد. دع الطريق يختر لك أيُّها المسافر.

تعجبت من طريقة كلامه وشروده، ومن مصادفة إذاعة هذه الأغنية بالذات. سألته مرة أخرى:

- أنت حاربتَ من قبل.. هل رأيتَ..

وحكيت له ما رأيت في حربنا، فهزَّ رأسَه وأجابَ وهو يتوقف إلى جانب الطريق:

- لم أرَ ما رأيت، لكني رأيت ما هو أغرب، وأعرف أنك صادق يا كامل.

«سلم لي على كل شارع، دافع عنه شبابه..

وهات لي وانت راجع، شوية من ترابه..»

نظرت إلى جانب الطريق حيث توقفنا. هذه دُشمة. ما الذي أتى بها وسط الغيطان؟! لم أسمع بشيء كهذا. قال لي السائق:

- انزل.

- أين أنزل؟ ما هذا المكان؟

- مكان المسافر الذي لا يعرف وجهته.

تملك الخوف قلبي. ثم.. لا.. أنا لست جبانًا. إن كان هذا السائق مجنونًا، فلأنزل وسأجد مَن يكمل بي الطريق ولو حتى اضطررت للمبيت في الشارع حتى الصباح.

نزلت وأنا ألعنه في سري. نظرت إلى الطريق عن يميني ويساري. لا صريخ ابن يومين حتى.

ابتعدتِ السيارة ببطء، وصوت شادية يبتعد معها.

«هتلاقي الأرض حرة وإن لاح فيها الغريب..

هتبقى الأرض جمرة بالدم واللهيب..»

رددت أنا: «**أمانة عليك يا مسافر..**»

وقفت دقائق. ينير القمرُ المكانَ. لا أرى أيَّ بيوت. لا شيء سوى الغيطان.. وسوى صوتِ الزئير! تلفَّت حولي، الدُشمة... هُرعت نحوها وأنا آمل أنْ يكون لي فيها ملاذٌ وسلاح. لقد تبعني أبناءُ السحالي! ماذا يريدون مني؟! أنا لست مجنونًا! هذه المخلوقات تركت أرضَ المعركة لترتع في غيطاننا وأرضنا الآمِنة!

وجدت بوابة الدُشمة مفتوحة. دخلت. الظلام دامس. تحسست ما حولي. أقمشة.. صناديق.. سلاح بارد. عظيم.

سحبتُ ما وجدت إلى خارج الدشمة. الآن معي مؤونة جافَّة وملابس وسلاح. سأنتظر قدوم المسخ.

إما أنا أو هو. هذا ثأر لن ينتهي إلا بتطهير الأرض من الأنجاس وما صنعوا..

لكن.. هل سأستطيع وأنا لم أقتل ذئبًا قَط، ولا حتى فَرُّوجة؟!

***

المكان: طريق السفر.

الذشمَة.

الزمان: 2024

أتبادل وأسامة النظرات. هذا رجل هُزِم، واختار أن يعيش المعركة والهزيمةَ حتَّى اليوم. هذا الرجلُ يعيش في هذا المكان الغريب منذ عقود، يكرر معركتَه مع المسوخ الطينية.

هذا رجل يؤمن أنه لم –ولن– يقتلَ الذئب، رغم ذلك لا ينفك يحاول.

أيُعقَل هذا؟

قال له أسامة:

- هل تعرف ما عكس كلمة شجاعة يا أستاذ كامل؟

- خوف..

- بل جُبن. يمكن للمرء أنْ يخاف ويظل شجاعًا. هذه هي مشكلتك. كلكم كنتم خائفين، وكلُّ واحد تصرف بشكل مختلف. لو كنت جبانًا ما هُرعت لتحاول إنقاذ عادل أو حمدي. لكنَّك كنتَ خائفًا يا.. بني. أعتقد أنني الآن أكلم الشاب ذا الثامنة عشرة وإن كنت فعليًا أكبر مني. أنت شجاع يا كامل يا بُني. لهذا أنت هنا، وحدك تواجه العدو كل يوم، لكن العدو هناك بالخارج. لقد عاد فعلًا وتركك وسط وَهمِ. لقد عاد ممسوخًا مدرعًا يضرب ويختبئ، يطارد في الصحاري ويسحق بالدبابات.

قلتُ:

- أعتقد يا أسامة أنّنا جميعًا نعيش الوهم نفسه. نكنس ونخبئ التراب أسفل البساط.. ثم نعيش مع التراب تحت البساط. لا يهمُّ ما يحدث في الخارج. نحن نحارب في معاركَ وهميّة ربما لأنَّ الواقع أبشع بكثير.

- بل لأنّنا لا نؤمن أننا قادرون على المواجهة يا سهير. سَليني أنا..

قال عبارته الأخيرة بصوت نادمٍ متألم. كدتُ أقول له أنني مثله، لولا أن سمعنا صوتَ الزئير المخيفَ يقترب أكثر. أتخيل ما وصفه كاملُ في حكايته. أنا خائفة. أنا مرتعبة. لكنّي لستُ جبانة. هذا الرجل يحتاج إلى مساعدة. قال كامل:

- عشت عمري أحاول معرفة كيف تموت تلك الأشياء. النّار تبددها. الانفجارات تفتتها. لا يؤثر فيها الرصاص. رؤوسهم ضعيفة نوعًا. لو أصابتها رصاصة دون خوذة يتفتت الكائن أيضًا.

جثوت جوار الوريقة التي طعنها كامل منذ قليل. فتحتها لأرى فيها حروفًا عبريَّة. لو أنَّ هاتفي يعمل لصورتها وترجمتها. لكنَّ هذه الوريقة تذكرني بشيء. الصورة تكتمل في عقلي تدريجيًا.

وريقة بالعبريَّة. كائن ينفجر ويتحول إلى تراب. الدروع. الطين.. يهتف أسامة:

- أرى الشيء هناك. إنه يقترب بالفعل! هل معك سلاح آخر يا كامل؟

- في الدشمة.

لحقت بأسامة إلى داخل الدُشمة المظلمة. نتحسس ما حولنا ولا نرى شيئًا.

- أسامة، هل تعرف كيف تستخدم سلاحًا؟! أنت لم تلتحق بالجيش!

- سأتعلم. سأضرب به كأنه هراوة. سأتصرف!

- كامل يعرف ما يفعل، لنختبئ حتى يتخلص من الشيء بالخارج ثم نحاول تهريبه إلى الميكروباص.

- لا. انتظري أنتِ هنا. يقول كامل أنَّ هذا ثاني كائن الليلة وهو غير معتاد على هذا. هل جاء يريدنا؟ إن كان الأمر كذلك، فلا بد أن نساعد الرجل. امكثي أنت هنا يا سهير. اتفقنا؟

هززت رأسي موافقة، فلم يرني. كرر سؤاله مرة أخرى فأكدت عليه أنني سأمكث هنا. أريد أن أفكر. أن أتذكر. أن أجمع أجزاء الصورة.

لماذا يريدنا الكائن؟ ماذا فعلنا؟

جلست على صندوق في الظلام، وخرج أسامة حاملًا سلاحًا ما. أرتجف. أسامة.. هل سيموت الليلة؟! أريد أن أخرج لأنقذه، لكن كيف سأنقذه؟! لماذا أفكر دومًا كأنَّني منقذُ العالم وأشجع الشجعان؟! فكري يا سهير. فكري. سلاحك معرفتك فقط. أنت أكثر ضعفًا من خلة أسنان.

الورقة. الطين.. الجوليم! الجوليم صنيعة المَهَرال (المعلم) العبري يهوذا لوف بن بتسئليل(5).

كان يهوذا حاخامًا يعيش في براج، مملكة بوهيميا، أو التشيك حاليًا، وقيل أنَّه استخدم سحرًا باطنيًا غربيًا مشتقًا من سحر القبالا، لصنع كائنٍ من الطين

أو التراب كي يساعد في الدفاع عن يهود براج ضد معادي السامية. لكن ذكر الجوليم يعود إلى التلمود، باعتبار لفظة الجوليم تعني الشكل بلا تفاصيل، ووُصِف بها خلق آدم عليه السلام قبل نفخ الروح فيه.

تعتمد هذه الممارساتُ السحريَّة على محاولة صنع كائن يتحرك بالسحر من طمي أو طين، ودَسّ ورقة تحمل تعويذة في فمه مكتوب عليها كلمة واحدة: «إميت» العبرية التي تعني الحقيقة، والتي إذا حُذف أول حرف منها صارت: «ميت» أي مَيِّت بالعربية.

الفكرة يرفضها الدين والعقل. لا يخلقُ البشر كخلق الله أبدًا، لكنَّ المسخ موجود هنا، ويتحرك بالسحر، أي بالاستعانة بالشياطين. رأيت من قبل كيف استطاع جبر تحريك دمى على شكل بشرٍ عن طريق تلك المخلوقاتِ التي لا تهدف إلا لإضلال البشر باليأس والكفر والهزيمة.

لا يُدمَّر هذا الكائن –لن أقول أبدًا أنَّه يموت، هو ليس حيًا من الأساس- إلا بخروج الورقة التي تحمل تعويذة تحريكه من حيث يدسها الساحر في فمه.

لذا الحرق والتفجير يدمران الكائن ويعيدانه إلى خامة صنعه الأولى.

هل من طريقة لتدمير كل تلك الكائنات مرة واحدة؟ أم أنَّها موجودة بوجود كامل على طريق السفر اللانهائي؟ هل الحلُّ في إنقاذ كامل وإخراجه من هنا؟

صوت طلقات رصاص. أطللت برأسي من داخل الدُشمة، وصحت:

- انزِع الورقة من فمه، أو فجر رأسه أو انتزعها. هذا جوليم، كائن سحريٌ لا أكثر.

الحلُّ في الرأس. سواء رأس الكائن أو رأس كامل. ربما واجه كامل هذه الكائنات في الماضي، لكن كل ما نحن فيه الآن ليس حقيقيًا إلا في عقله. لا يمكن أن يكون هذا هو الواقع.

يئس أسامة من السلاح، وراح يلقي الحجارة نحو الكائن الذي لم يعبأ سوى بتلقي الضربات ثم النُهوض مرة أخرى قاصدًا كامل. هذا الكائن لا يريد قتله، وإلا اجتمعت الكائنات وأجهزت عليه منذ زمن. ما نراه عذاب سيزيفي لا أكثر.

لكن مَن يعذبه؟ عقله؟ هل نحن داخل عقله ومخاوفه؟ الزمن لا يمر بشكل طبيعي من الأساس. هل هو كابوس جماعي؟

يصرخ كامل مشجعًا نفسه، ليعتلي جسد الكائن ويخلع عنه خوذته. أرى عيني الكائن تنظران لي. يسير نحوي؛ نحو الدُشمة، وهو يحمل كامل كرضيع مشاكس. يصرخ كامل:

- الورقة في فمه؟

يلكم وجه الكائن لكمات متتالية. أسامة أطول من كامل، لكنَّ فارق الطول بينه وبين الكائن قرابة خمسة عشر سنتيمترًا. أرى أسامة يحمل البندقية، ثم

يحاول خنق الكائن بها من الخلف.

لن يختنق بالطبع، لكن وزن أسامة وضربات كامل أسقطته أرضًا فوق.. فوق أسامة!

هرعت إليهما. حاولت جذب أسامة من تحته بينما كامل يلكم الوجه الطيني بلا توقف. الغريب أن الكائن لا يحاول انتزاع كامل عنه، كأنَّه يتركه يلعب. لكن زوجي..

أعني.. أسامة..

دون تفكير دسست أصابعي في فم الشيء البشع وأنا أسعل من رائحته الشنيعة. ملمس الطين الساخن مقزز.. كامل يجثوا فوق صدر الشيء ويثبت رأسه بكفيه حتى أتمكن من انتزاع الورقة.

أشعر بها.. ورقة سميكة تغوص أكثر إلى الداخل مع كل حركة. صار ذراعي إلى الكوع داخله، ووجهه يلامس وجهي. عينانا تتلاقيان. كامل يهتف بي.. أسامة يتملص بقوة.

- «استسلمي ولن أؤذيكِ. استسلمي وستعودين لتحكي قصة المسخ وتحذري الناس منه، فييأسون، ولا أؤذيهم. الأمر بسيط. لست كائنًا شريرًا، أنا فقط أدافع عن وجودي».

لا أعرف إن كان المسخ يكلمني أم أن هذه كلماتي الخاصَّة. لا يهم. أقحم ذراعي حتى الكتف داخل الطين المقزز. أشعر بأشياء تتحرك داخله.. ديدان، ثعابين.. لا أعرف.

أقبض على الورقة وأسحب يدي بسرعة، فتطبق أسنانه الصخرية المهشمة على ساعدي. أصرخ، لن أستسلم فيتركني أتحول إلى مجذوبة. يصرخ أسامة ويطعن الرأس بفوهة البندقية. يظل يطعنه، فيقوم كامل بسرعة من فوق صدر المسخ، ويجلب سكينًا يدسه بين شفتيه ويشق الرأس عرضيًا بصعوبة شديدة.

أسحب يدي، يتمزق جلدي وأنا أحررها بالورقة أخيرًا، فينفجر الكائن متحولًا إلى غبار. نسعل جميعًا ونحاول الابتعاد عن السحابة النتنة. يزحف أسامة نحوي، وهو يخلع قميصه ويهتف:

- هيا.. هيا إلى الميكروباص، لا داعي للمكوث هنا.

نظر إليه كامل وقال:

- وباقي المسوخ؟ يجب أن أظل هنا لأقتلها وأحمي الأرض!

قال أسامة في حنق وهو يربط ذراعي:

- الأرض بالخارج يا كامل تُنتهَك وأنت مستسلم هنا إلى صراع وهمي! صانع هذه الأشياء موجود ويزداد قوة.

زعق كامل بصوت كالرعد:

- لست مستسلمًا!

قلت له من بين أسناني:

- كلنا ننخدع في استسلامنا ونعتبره مقاومة. اختَر معركتك يا أستاذ كامل ولا تُنهِك قواك فيما لا طائل منه.

- هذه معركتي، ولا أحد يحارب هذه المسوخ سواي! لا بد للجندي أن يربض مكانه، ولا ينسحب أو يتقهقر أمام العدو.

يعينني أسامة على الوقوف، ويقول له وهو يسحبني من يدي إلى الميكروباص:

- أنت متمحور حول ذاتك، وتجهل خصمك. لن تلقى سوى المزيد من الانتصارات الزائفة. أنت سمكة تلتقم الطعم ذاته كل يوم وتأمل في النجاة. هيا يا سهير.

نظرت إلى كامل أرجوه أن يأتي معنا، لكنه عاد يقف أمام الدشمة، مشهرًا سلاحه، يصيح كأنه مجذوب بالفعل: «**انتباه!**»

أسير مع أسامة إلى الميكروباص. صوت عبد الحليم يشدو:

«**.. تحلم بلدنا بالسنابل والكيزان. تحلم ببكرة والي هايجيبه معاه..**»

يفتح لي أسامة باب الميكروباص فأركب، ويركب ورائي، ثم في غضب مستعر يمسك ياقة جلباب السائق ويهتف به:

- عد بنا حالًا وإلا قتلتك! زوجتي مصابة!

قال عبد السميع:

- لا تخف. لن يحدث لها شيئًا كما لم يحدث شيء لكامل.

- ما لي ومال كامل! عُد بنا!

- لا زال طريق السفر طويل، وأنتما في بداية الرحلة.

ينطلق الميكروباص، وأنا أمسك بذراع أسامة كي لا يقتل الرجل بالفعل وإلا ضعنا. ينهار مسندًا ظهره إلى ظهر المقعد، فيتصاعد غبار الكائن من ملابسه. أخرج من حقيبتي مناديل مبللة أمسح بها وجهه بعدما مسحت نظارتي كي أراه أصلًا، وأهمس:

- لماذا نجونا يا أسامة؟ لماذا لم ينجُ كامل؟

- لا أعرف. أعتقد أن ما رأيناه عقاب كامل لا عقابنا نحن، لكن لا بد من حكمة ما في سماعنا حكايته. أليس كذلك؟

- هذا ليس فيلمًا أو رواية. ربما كل هذه الرحلة بلا طائل ولا نقطة تنوير.

نصمت دقائق، ويختفي صوت بعد الحليم حافظ ويحل محله تشويش خافت مستمر. أسأل انعكاس أسامة في النافذة إلى جواري:

- أسامة. هل خُضنا معركتنا بالفعل أم أننا منخرطان في مقاومة وهميّة ونحن في الأصل مستسلمان؟

يرمش أسامة ولا يجيبني.

الطريق طويل، ممتد، غامض، لا أعرف حتى وجهتنا ولا سبب تلك الرحلة.

أفطن إلى أن الورقة بالعبريَّة في يدي. إميت (الحقيقة)، ميت (مَيِّت). أنظر إليها طويلًا، ثم أضعها في حقيبتي.

أنا خائفة، لكنّي لستُ جبانة.

***

حين أدركَت هذا، عرفت أنها أخطأت حين قبلت الثروة من الأساس، وأن محاولات تطهيرها ستبوء بالفشل، وأن المبادئ لا تتجزأ، وأن ماء البحر سيبقى مالحًا إلى الأبد حتى وإن هطلت عليه الأمطار العذبة ليوم الدين(6).

***

---

(5) التالي معلومات عن شخصية حقيقي، لكن دون إثبات تاريخي على أفعالها (الكاتبة).

(6) كتاب (الطريق)

الفصل الثالث

المكان: طريق السفر

الغُرزة.

الزمان: 2024

يمتد الطريق موحشًا مرة أخرى. ذراعي يؤلمني لكني لا أبيِّن ألمي كي لا يجزع أسامة.

عن يساري مقابرُ من تلك المنتشرة في الأرياف. أرض زراعيَّة بور، فيها مقابر على شكل أنصاف أسطوانات بيضاء. تحوي بعض تلك المقابر مقاماتٍ لمن يحسبه أهل القرى من الصالحين. أعرف هذا لأنَّني تربيت وسط كل تلك المعتقدات التي لا تخلو منها قرية أو نجع.

يقول عبد السميع وقد لاحظ شرودي وأنا أنظر نحوها:

- مقام أم جمالات. لو اقتربتِ أكثر لرأيتِ مُريديها بالعشرات داخل مدفنها حيث ماتت في حجرتها. نقلتهم بنفسي إلى هناك.

يسأله أسامة:

- ما هذا المكان الذي تنقل الناس إليه؟! طريق سفر مسحور؟ هل أنت ساحر؟

- هذا طريق سفر، نعم. لكنهم جاءوا إلى هنا بناء على رغبتهم. يئس هؤلاء المُريدون من الأحياء وجاءوا أملًا في الأموات. كل عام تقوم الحاجَّة أم جمالات من قبرها وتختار منهم من يرافقها إلى القبر، مقابل تلبية أمنية واحد منهم. قريبًا سيموت هؤلاء جميعًا، وأكون قد أحضرت المزيد بدلًا عنهم. بعض الأماكن على طريق السفر جذابة أكثر من الأخرى.

أقول أنا:

- لماذا لا تكلمنا كالعاقلين؟ أسئلتنا بسيطة، ونريد إجابات بسيطة. هذا حقنا.

يلزم عبد السميع الصمت. تمر من أمامنا كُرة نباتات برية جافة. تعبر الطريق إلى سيارة نقل مقلوبة تفوح منها رائحة نتنة. يهمس لي أسامة:

- هذه سيارة كانت تحمل كراتين بيض وانقلبت هنا.

فأهمس له بدوري:

- إذًا في هذا المكان سيارات أخرى. كيف عبرت إن كان شرط الدخول إلى هذا الطريق الركوب مع هذا السائق؟

- مَن قال أن هذا شرط؟ ونحن لا نعرف حقًا ما يفعله عبد السميع هذا في باقي أيام السنة.

ثم يهز أسامة ذراعي وهو يشير إلى اليمين، حيث ظهرت ترعة ضيقة تحفها المزروعات. قبل أن يسأل أسامة السائق عن شيءٍ ما، نلمح القلق في انعكاس عينيه في المرآة الأمامية وهو ينظر إلى ما خلف السيارة. ننظر بدورنا إلى الوراء لنرى ظلالًا عند الأفق. ثلاثة ظلال طويلة، تطول وتقصر بانتظام وبسرعة. يزيد السائق سرعته تدريجيًا، فيسأله أسامة:

- ما هذا؟

- ستنزلان قريبًا. اختبآ وسأعود لكما بعد قليل.

- مِمَّن سنختبئ وأين؟!

يتجاهل السؤال كالعادة. نسمع صوت ينبعث من المذياع، يزيح التشويش جانبًا.

«مَرَق السفر أخد الناس، أخذ المطارح والحراس..»

انضم صوت فيروز التي أحبُّها الآنَ إلى الأصوات التي ستطارد أحلامي لو عشتُ بعد هذا اليوم. على اليمين حبل ممتد بمحاذاة الترعة، معلق عليه ملابس متنوعة ترفرف في الهواء. تبطئ السيارة استعدادًا للتوقف. عند المنعطف حجرة مبنيَّة بالطوب اللبِن، حولها سور قصير، خلفه مقاعد سيارات قديمة مهترئة، ورجُلان ممددان على أريكتين منها.

- انزلا. بسرعة.

الخطورة في صوت عبد السميع توترني. أنظر خلفنا فأرى الأشباح الثلاثة تقترب، ويهمس لي أسامة:

- هؤلاء رجال يركبون خيولًا.

ثم يمسك يدي وينزل وهو يسأل السائق:

- ما هذا المكان؟! وأين نختبئ؟

أطلق السائق النفير مرتين، ثم انطلق مسرعًا. تنبَّه أحد الرجلين ونظر حوله، ثم إلينا وسأل:

- مَن أنتما؟

أجابه أسامة أننا مسافران ضلا الطريق. ضيَّق الرجل عينيه وهو ينظر إلى الخيول التي تلتهم المسافة بيننا وبينهم، ثم هتف وهو يشير لنا بالدخول:

- يا زكيّة. معنا حريم. الخيّالة على الطريق. استر يا رب.

ينهض الرجل الآخر سريعًا، ويدخل الحجرة ثم يخرج منها حاملًا لفافة قماشيَّة كبيرة ويضعها على الطريق وهو يصيح في أسامة:

- هيا! ماذا تنتظران!

دون تفكير أمسك أسامة ذراعي ودخلنا الحجرة، بينما يهرع الرجلان ليغلقا بابًا حديديًا خلفنا ويضعا وراءه عصي حديدية تمنع فتحه من الخارج.

الحجرة شِبه مظلمة، يتوسطها ما يُسمَّى بـ(المَنقَد) وهو وعاء معدني توضع فيه الأخشاب للتدفئة أو للشَيِّ كما كان يفعل عمي مدحت في الحقل وهو يشوي الذرة لنا.

على الضوء الخافت أرى زكية، سيدة أربعينية سمراء عجفاء، ترتدي جلبابًا رجاليًا كان أبيضَ من قبل، وتربطه حول خصرها بحبل كي لا يتدلى على الأرض. قالت زكية بصوت خشن قليلًا:

- لا تخافي. نحن معتادان على الأمر. سوف يأخذون نصيبهم ويرحلون.

يهتف سامة:

- مَن هم؟ ونصيبهم من أي شيء؟ من أنتم أصلًا؟

قال أول من لاحظ وجودنا، وهو رجل أربعيني ذو بشرة محمرَّة وشعر بني خفيف:

- أنا مرعي، وهذا يونس، ونحن في الغرزة الخاصة بي. ألمَ تريا غُرَزًا على الطريق من قبل؟

شخصيًا لم أرَ غُرزًا على الطريق الزراعي بعد بداية الألفينيات. صوت حوافر الخيل تعلو. صوت ضحكات مجنونة كأنَّ الراكبين في ملاهي. أنكمش أكثر ويحيط أسامة كتفيَّ، فأختبئ بين جسده العملاق والحائط الخشن. يقول أسامة:

- نعرف الغُرَز طبعًا. مَن بالخارج؟

- قطاع طرق. لا تقلقا. نترك لهم نصيبهم من المياه و(العَرَاقي) و(البوظة)، وتصنع لهم زكيّة طعامهم. لن يريدوا منا سوى هذا.

يرفع يونس وعاءً فخاريًا ويصب لنا منّه كوبين. أعرف هذا الشيء الكريه المسمى بالبوظة، وهو خمر محليٌ ضعيف مصنوع من تخمُّر الخبز، ويباع في الأرياف أحيانًا دون حرج. يدور البائع بالخمر خبيث الرائحة داخل جِركِن بلاستيكي في الأسواق، ويصب للناس منه في أكياس صغيرة. أما العَرَاقي فهو خمر البلح. فور أن يرحل الخيَّالة سأخرج أنا وأسامة لنختبئ في أي مكان -مم سنختبئ؟- ولن نمكث في موضع فيه خمر ومخمورون تحت أي ظرف.

يقول أسامة في حزم وهو يبعد كوب البوظة:

- لا نشرب الخمر. هل لديكم ماء؟ زوجتي مصابة ونحتاج إلى غسل الجرح.

صوت خطوات تقترب من الباب الحديدي، ثم قرعات قوية تزُج المكان وصوت ينادي:

- هات المسافرَين يا يونس وسنترككم في حالكم.

نتبادل جميعًا النظرات. ألم يقولوا أنهم لا يريدون سوى الخمر والماء والطعام؟ يهمس يونس –ذو البشرة المصفرة والعينين الجاحظتين والشعر الأجعد- لمرعي:

- ماذا سنفعل؟

- ننتظر قليلًا لنرى.

ثم بصوت أعلى يهتف:

- ليس معهما شيئًا يا ريّس. امرأة نحيلة كعود القصب، ورجل في حاله. ليس معهما سيارة حتى.

يضحك « الريّس» ضحكة مختلة، ويجامله الآخران. يضرب الباب مرة أخرى ويقول:

- أعرف أنهما جاءا مع عبد السميع. عمومًا سنحصل عليهما عاجلًا أو آجِلًا، لكن لو لم تسلمهما الآن ستثير غضبي، وأنت تعرف غضبي. لا تنس شوكَت، هه؟

ينظر الرجلان إلى بعضهما، ثم إلينا، فتحول زكية بيننا وبين أعينهما وتقول من بين أسنانها:

- كانوا ليقتلوا شوكَت على أي حال. هذان بريئان آخران، وفي الصباح سيجدان لهما مكانًا بعيدًا عنا. لن يقتل الريس أحدًا، لأنه يعرف أنه يحتاج إلينا.

تلتفت نحوي وتربت على كتفي، ثم تصب لي الماء على جرح ذراعي. الوضع ليس كما تصورت. سيترك هذا ندبة عميقة، لكن الجرح لا ينزف. يُجلسني أسامة على مقعد سيارة بالداخل، ثم يمسك ذراع يونس النحيلة المتدلية من كُم قميصه المهترئ ويسأله:

- **ستجلس أنت وهذا هنا، وستخبرانني كل شيء عن هذا المكان وعن عبد السميع هذا.**

ينظر له يونس نظرة غائمة، ثم ينظر نحو الباب الذي يعلو من خلفه صوت الخيالة يضحكون ويتصايحون. يقول مرعي وهو يدفع أسامة:

- **ما بك؟ اتركه. نحن (في الهوا سوا). لنا هنا عشرون عامًا. كنا أربعة، مات شوكت أخي هنا منذ زمن. جئنا كما لا بد أنكما جئتما.**

- **هل تعرف كامل، الجندي عند الدُشمة؟**

- **سمعنا به ولم نره. المسافات هنا طويلة لا تُقطع سيرًا، والخيالة ينهبون أي سيارة تدخل ويأخذون منها الوقود والبطارياتِ وكلَّ شيءٍ، ويتركون لنا هياكلها الفارغة.**

- **مِن أين أتوا؟**

- **لا نعرف. لكن الجميع أتوا عن طريق الأسطى عبد السميع وبمعرفته.**

صوت لهاث يصلُ لي من الخارج. لهاثٌ حيوانيٌ. لا، ليس صوت الخيول.. شيء أقرب للهاث الكلاب لكن أعمق وأعلى. ينظر يونس إلى مرعي ثم إلى زكية، فتقول الأخيرة:

- **اسمعي يا مدام وأنتَ يا أستاذ. لا تخافا. سيحدث ما يحدث كل ليلة وسيمر اليوم كغيره. مَن بالخارج سيظلون بالخارج، فهم بعدما أكلوا وشربوا لن يريدوا سوى الأموات. أما مَن سترونهم هنا فلن يؤذوكم. لا تتدخلوا في شيء.**

تتسع عيناي وأنا أنظر إلى أسامة، فيحيطني بذراعه ويدفعني برفق إلى ما خلفه ويقول:

- **ماذا سيحدث؟ هل ستهاجمنا المخلوقات التي تهاجم كامل عند الدشمة؟**

أجاب مرعي في أسى بعدما جرع جرعة كبيرة من البوظة:

- **لا أعرف ماذا يهاجم كامل. يبدو أن لكلٍّ منّا سجنَه الخاصّ الذي اختار أحجاره بنفسه.**

يضحك مرعي ضحكة مُرَّة، قبل أن نسمع طرقات قوية متفرقة خلف الطوب اللبِن، ونرى تخلخُله. يكمل مرعي:

- **دائمًا يأتي الأرنب أولًا. يحفر نفقًا لمَن يليه.**

أصيح:

- أي أرنب؟!

ينظر لي مرعي كأنه لا يراني، ثم يحكي والطوب يتخلخل ببطء شديد. يقف يونس جوار الجدار يرفع عصا سميكة بيد، وبالأخرى يصب البوظة المقرفة اللعينة في حلقه صبًا، تقف زكية أمامي.

- البداية كانت في رمسيس، مصر.. 2004

***

المكان: ميدان رمسيس

الزمان: 2004

لماذا هو؟ لماذا أكدح ويكدح شوكَت ونظل (صبيِّين) عند المعلم شعبان الدماطي للأبد؟

لماذا يأتيهِ الرجال من كل فج عميق، ليستشيروه في كل كبيرة وصغيرة، وينفذون مشورته كأنه قرآن مُنزَّل مُنزَّه؟ «جئناك يا معلم شعبان طلبًا لعمل في مَصر»، حاضر. اذهبا لوكالة الحاج يوسف أبو هيبة وقولا له أنكما من طرف المعلم شعبان. «**لقد اختلفنا في تقسيم هذا الميراث يا معلم، مَن مِنا على حق؟**»، لا بأس. للذكر مثل حظ الأنثيين، أم ستخترعون دينًا جديدًا؟ «**يا معلم شعبان.. أنجدنا.. أغثنا.. خذ يا رب من أعمارنا وزِد في عمره..**»

العالم من حولي أنا وشوكت عبارة عن معلم شعبان ضخم يحيطنا بجلبابه ويحجب عنا النُّور والهواء. لكنِّي وأخي نعرف كم أنَّ الجلبابَ متسخٌ من الداخل بالدم والصديد ودعاء الأرامل وآلام اليتامى. لا يعرف أحد سوانا عمَّن يأتون إليه ليلًا، يرجون منه الرحمة، يطالبونه بما أكله من ميراثهم، وبتعويض عمن قتله من رجالهم، وبرد المال الذي اغتصبه منهم.

والدنا من سوهاج، جاء في بداية الثمانينيات يسعى على عمل في «مَصر». بمجرد أن نزل من قطار الصعيد في رمسيس، سأل في مقهى الجمهورية عن لوكاندة المعلم شعبان، فأشارت له عشرات الأكُف إلى الطريق. بعدما وجد عملًا حارسًا لأرض فضاء، سلَّمني وأخي إلى المعلم شعبان (لحمة حمراء) وقال له: «**هذان ولداي، ثمنًا لما قدمته لي من عمل يقوم به أي كلب حراسة**».

فأخذنا المعلم شعبان. علَّمنا في المدارس الأزهريَّة، فقيل أنه راعى الله فينا إلى أقصى حد. وعلَّم ولديه في مدارس اللغات فقيل أنه علمهما بماله، ولا شأن لأحد به. عَمِلنا عبدين له سنوات، وصارت تلك العبودية فخرًا لأبي أمام عائلته. شوكت ومرعي يعملان لدى المعلم شعبان الدماطي، فهنيئًا لهما ولي.

كنا ذراعه الأيمن الذي يبطش به، ويلطم به النساء، ويمسح به فضلاته.

فلماذا نحن عبدان، ولماذا يعتلي هو العرش ويدلي قدميه فوقنا؟

***

لوكاند المعلم عبارة عن منزل قديم، أسفله مقهى وأعلاه غرف متهدمة مفروشة بحشيّات قطنيّة متجاورة، مع بعض الأسرّة المعدنية (إيديال) لمن يملك مالًا أكثر. يأتي للحاجّ شعبان الرجالُ من المحافظات البعيدة يبحثون عن عمل وإقامة مؤقتة حتى تتحسن الأحوال، لكن الأحوال لا تتحسن، فيتكوّم الناس فوق بعضهم، ويغدون أسرة واحدة متحابّة متشاحنة، كبيرها الحاجُّ شعبان العظيم. يقفون بالطوابير أمام أبواب الحمامات الثلاثة في المبنى، يدعون للمعلم الذي سترهم فوق الأرض حتى يسترهم الله تحتها ويرتاحوا من مشقة الحياة. يعطونه جزءًا من يومياتهم فوق الإيجار لأنَّه مَن رزقهم بهذا الرزق. عندما تتحسن ظروف واحد منهم، فيعمل بوابًا مثلًا، يحضر أسرته الصغيرة ليتكوموا معه في غرفة رطبة داخل مرآب لا يرى من العالم إلا أسفله، لكن يظل الحكم للمعلم شعبان وحده. هو من يزوّج ويطلق ويقسم الميراث ويدفن الموتى.

أولئك الرجال –وأنا وأخي- عبيد المعلم شعبان يفعل بنا ما يشاء، ولا يُسأل عما يفعل، فله حكمة في كل شيء. حتى عندما طلق حُسنى من مطواع ليتزوجها كان في أمره هذا حكمة. حتى عندما أكل المال الذي أعاده من مُغتصبه، فله حكمة.

كان شوكت في الرابعة والعشرين من عمره، وكنت في الحادية والعشرين عندما علمنا أن المعلم شعبان يموت. اسود وجهه الذي كان في بياض البدر، وانحنى ظهره، وتضخم بطنه. سافر للحج ثم عاد وانعزل في غرفته، وترك لنا إدارة كل شيء. ولداه الناعمان المخنثان لا يريدان سوى المال، أما هذا الجحيم الذي ينفث ذلك المال فلا شأن لهما به. قريبًا سيموت، وسيرثان كل شيء، وسيغلقان اللوكاندة والمقهى حيث كان يُعبَد أبوهما. إن للرجل حياة أخرى، ولديه متاجر قطع غيار سيارات نصف نقل تدر ملايين، لكن يظل مزاجه هنا، في اللوكاندة، حيث تُقدم له القرابين؛ مالًا وطعامًا وبشرًا، مثلما قَدَّمَنا أبي له.

المعلم سيموت. قال لي شوكت:

- والعمل يا مرعي؟ سنُلقى في الشارع؟ أين سنجد عملًا ونحن لم نكمل حتى التعليم الثانوي؟ هل ينتهي بنا المطاف مقرنَين على المقابر؟! لا.. لن نترك لورثته الجَمَل بما حمَل.

ظل تساؤل شوكت يطوف في رأسي وأنا أمام المعلم أخبره أن فلانًا تأخَّر في دفع الإيجار، وأن عِلَّانًا يُلسِّن عليه في كل مكان وعلينا تأديبه، وأن..

- دعهم يا مرعي. دعهم..

يقولها في وهن وهو جالس خلف مكتبه الأرابيسك، يكتب بلا انقطاع. ماذا يكتب؟ من أين سنأكل ما لم نجمع الإيجار ونخرس الألسن ونُعرِّف الناس لمن المُلك اليوم؟

عندما صارحته بما أفكر فيه، قال لي:

- اسمع يا بني. هذه الأوراق فيها اسم وعنوان ومَظلمَة كل من ظلمته في حياتي. من اليوم سأعيد لكل ذي حق حقه. سأموت يا مرعي.. سألقى ربًا كريمًا. هل تعرف ما يعنيه أن ترى كل شيء حولك وتودعه لأنّك لا تعرف إن كنت ستراه ثانية؟ أنا لا أنام. الألم يعذبني لكن عذابه لا يقارن بالكوابيس التي أرى فيها حياتي.. نساء يُحَسبنَّ عليّ، رجال يدعون الله أن يأخذني أخذ عزيز مقتدر. مال حرام يكوي أحشائي بدلًا من أن يشفيني بما اشتراه من دواء. الحمد لله يا مرعي الذي عذبني في الدنيا، وأمهلني حتى أتوب. وسأعيد الحق إلى أهله حتى لو مت قبل ذلك.

يا للخراب! سيتوب المعلم؟! سيرجع لكلِّ ذي حقٍّ حقَّه؟! سيوزع المال –مالنا بتعبنا ودمنا- على الناس؟ هرعت إلى شوكت أخبره، فكاد يلطم خديه. إن كان سيوزع ثروته فلنا فيها حق عبوديتنا وتلوث أيدينا بما نأى هو عنه. كم رجلًا قتلت يا شوكت بأمر المعلم؟ كم خمرًا نقلت وصببت يا مرعي في جلسات المعلم السريَّة؟ كم طفلًا تيتَّم على أيدينا؟ كم سجينًا مات قهرًا وظلمًا بعدما حمل عن المعلم أوزاره؟

هكذا، في المساء نفسه، دخلت عليه أنا وشوكت في غرفته ذات الحمام الخاص والتكييف في اللوكاندة، وقال أخي له:

- بالطبع سننفذ وصيتك يا معلم. هاتها لنبدأ على الفور.

ابتسم الرجل وهو يخرج الأوراق من حقيبته الجلديَّة، فقد كان سيعود إلى فيلّته في المهندسين، فأخذت منه الأوراق، بينما يدور شوكت حوله ليخنقه بسلك الأباجورة. لم يقل الرجل شيئًا سوى: «**لماذا؟ أمهلاني لحظة حتى أشرح..**» ثم جحظت عيناه، وانفجرت الشعيرات الدمويَّة فيهما، وبرز لسانه من فمه، ثم أسلم الروح.

أخرجنا سلسلة مفاتيحه من جيبه، وهرعنا إلى الخزينة نفتحها ونفرغ ما فيها من أموال مكدَّسة. أعرف أنها نقطة في بحر ثروته، لكنه يكفي الآن. مسحنا بصماتنا من على المفاتيح ورميناها إلى جواره. أما باقي البصمات فطبيعي أن تكون موجودة في كل مكان إلى جانب بصمات العشرات من زواره.

صعدنا إلى السطح حيث تربي زكية وزوجة أبيها الدجاج والبطّ للمعلم، وتطهوه المرأتان لضيوفه أو تنظفانه لأهل بيته في الفيلا. تقوم زكية ببعض الأدوار الأخرى عندما يقرر المعلم أن يصلي العشاء ثم يشرب مع أصدقائه (كأسين)، ويأخذ (نَفَسين) لزوم توطيد أواصر الصداقات والعمل بينهم. أعرف أن المعلم شعبان يشرب ويحشش لكن المهم أن يحدث هذا بعد صلاة العشاء.

يقولون أنه لا خمَّارة بلا فتَّاحة، ودور زكية لا يتعدى فتح الزجاجات للضيوف، ورص أحجار الشيشة. هي ليست جميلة، لكن فيها غموض غراب ينظر لك من فوق شجرة كأنه يعرف كل أسرارك، ويخبرك أن سرَّك في بئر. مع ذلك لا يكف عن التحديق إليك.

خبَّأنا المال وراء حجر مثبَّت إليه طبقُ استقبال القنوات الفضائيَّة الخاصُ بغرفة الحاج، وقبل نعود إلى الدَّرج، رأينا زكية تقف عند الباب الخشبي، تنظر

إلينا بوجه بارد وتسأل:

- ماذا تفعلان هنا يا.. (حرامية الفراخ).

ضحكت مع عبارتها الأخيرة ضحكة ذات معنى. نحن حرامية، لكننا لم نسرق الدجاج. قال لها شوكت:

- لا شأن لكِ يا (بِت). الحاجُ يريد غدًا ديكًا روميًا وبطتين. سأرسل لك حامد صباحًا ليأخذهم منكِ.

- الحاج لم ولن يطلب شيئًا. رحمة ونورًا عليه.

رأتنا زكية ونحن نخرج متخبطين من عند المعلم. قرعت الباب مرارًا ثم دخلت، لتجده منطرحًا على وجهه.

- اسمعا، لم أعد أطيق تلك المرأة زوجة أبي، ولم أعد أطيق هذه العيشة. أعرف أنكما سرقتما المعلم أيضًا، وقد (غار في داهية) أجحمه الله في أسفل سافلين. المهم، خذاني معكما لأي مصيبة بعيدة عن هنا، وسآخذ رُبع المال مقابل سكوتي. ماذا قلتما؟

نظرتُ إلى شوكت وفهمت نظرته وتَصَلُّبَ عضلات ذراعيه وانقباض كفيه. لا يا شوكت، لن نقتلها. زكية منا.. قلت سريعًا:

- لكِ عشرة آلاف جنيه وستهربين معنا. لكن ليس الآن. عليك أن تنزلي وتصرخي وتلطمي وتخبري الجميع أنكِ وجدت المعلم ميتًا في مكتبه. وأخبري جابر أن يذهب ليستدعينا من المحطّة. لو سألك أحد عنّا قولي أننا كنا في المحطّة منذ التاسعة. مفهوم.

هزَّت رأسها إيجابًا. نزلنا الدَّرج وتسللنا إلى الشارع ومنه إلى محطة رمسيس، وعزمنا على أن يرانا كل مَن نعرفه هناك من باعة وعمال. بعد ساعة جاء جابر يخبرنا بالطامَّة، فعدنا معه لنجد ابن المعلم الأكبر والشرطة.

مكثنا شهرين ونصف في تحقيقات وأسئلة ومراقبة لا تنتهي. جمعنا مال المعلم لصالح ابنيه بكل أمانة، وأخبرنا الشرطة بكل تفاصيل عمله وعداواته التي تفوق صداقاته عددًا. مَن فعلها والكل يتمنى لو يموت المعلم شعبان الدماطي؟ لم يحزن عليه إلا المخدوعون فيه بَعد ممن جاءوا إلى القاهرة قريبًا، وهؤلاء تشرَّدوا في الشوارع بعدما أغلق الورثة اللوكاندة والمقهى.

لم يجدوا حينها صدرًا حنونًا سوى صدري وصدر شوكت. قال لهم أخي أننا عائلة واحدة، وأنه سيجد لهم مسكنًا وسيحميهم وسيكون خير خلف للمعلم حتى تتحسن أوضاعهم.

هكذا استأجرنا مكانًا أكثر بؤسًا من لوكاندة المعلم، وأسكنّا فيه الرجال، وبدأنا نفكر في الطريقة التي سنتوسع بها دون أن نثير الشكوك. نحن تربية المعلم شعبان، نعرف كيف نجعل الخرابة جنَّة في أعين المحتاجين، ونعرف كيف نرغمهم على تقبيل أقدامنا وتقديم القرابين لنا مقابل بصقة في وجه كل واحد منهم

صباحًا ومساءً. بل نحن نمتاز عن الحاجّ بأننا أزهريان، نحفظ كلام الله ونعمل به. مَن يستطيع أن يُشكك فينا حتى لو رآنا نرتكب الموبقات؟

سألنا ابن المعلم في يوم عما إن كان لأبيه ديون لا يعرفها المحاسب، لأن مَن سرق الخزينة أخذ ما فيها من أوراق ومستندات. قال الشاب الطري: «**أبي كان رجلًا محسنًا يراعي الله، ولا نريده إلا أن يلقى الله بلا دين ولا مظلمة**».

وتذكرنا الأوراق معنا وقائمة المظلومين التي أراد الرجل التكفير عن ذنبه معهم، فأجابه شوكت: «**لا نعرف أن له ديونًا أو مظالم. رحمه الله رحمة واسعة. كُل لقمة معنا يا سليم بيه**».

ولم يأكلِ الشابُ الطريُّ سليم شيئًا، ولم نره مرة أخرى. كان في وسعنا تسليمه قائمة الأسماء على الأقل أو إرسالها له من مجهول، لكن لا. لا يمكن لشخص أن يعيش حياته يعيث في الأرض فسادًا كشيطان رجيم، ثم ينذره الله بقرب موته فيتوب بكل بساطة! لقد اغترف من ملذَّات الدنيا ولن أسمح له بالتنعُّم في ملذات الآخرة أيضًا.

بعد استقرارنا في اللوكاندة الجديدة، عرض علينا محامي المعلم شراء اللوكاندة القديمة والمقهى لأننا أولى، ولأن..

- لأن المعلم أوصى في حال موته أن أعرض عليكما المكان لتشترياه بالتقسيط الذي يناسبكما.

ضحكت وضحك شوكت. بالتقسيط يا معلم؟ بعد شقاء السنين تبخل علينا بهدية يضرب فيها السوس كهذه، وتطالب بثمنها؟ لكن أخي وافق. مكان اللوكاندة والمقهى ممتاز، ومعروف للقاصي والداني. طلبنا من المحامي السداد على خمسة عشر عامًا، فنحن كما يعلم الجميع (على الحميد المجيد) فوافق الورثة الذين هم متخمون بالملايين التي تركها لهم، ولا ينتظرون تسعين ألف جنيه منا.

مرت تسعة أشهر، وطالبت زكية بالزواج من أحدنا -لا يهم مَن- كي تُخرِس ألسنة الجميع وتقهر زوجة أبيها، وتصير هي السيدة الآمِرة. تزوجها شوكَت، وعاشت معه في غرفة المعلم ذات التكييف وقنوات القمر الصناعي، وعشت أنا في غرفة كئيبة بمفردي. لا يجب أن نُظهر المال الآن ولا أن يبدو علينا أننا في نِعمة.

ومرت الأيام، حتى ظهر الأرنب.

***

كنت في غرفتي، أنعي –كعادتي- حظي الأغبر الذي يأبى إلا أن يعطيني الفتات. أعترف أن الرجال صاروا يلجئون لي ولشوكَت، لا لشيء إلا لأننا نعرف الله ونحفظ كتابه، وكنت أكثر براعة من شوكت في انتقاء الآيات لتناسب كل وضع، مما زاد شعبيتي. لكن يا لفرحتي وأنا محبوب وشحاذ. حتى الخمر الذي أشربه كي أنام سبرتو أحمر يحرق الحلق والأحشاء.

سمعت صوت حفر داخل الحائط الخارجي، ليس خلفه سوى هواء الليل الرطب. اقتربت من الحائط وأنا أرفع المكنسة تحسبًا لظهور فأر. الحائط يُنخَر من الخارج ببطء، ثم يتكسَّر الطلاء، وتبزغ من ظلام الفجوة عينان حمراوان. أجفلت وبسملت واستعذت بالله من الشيطان. رأيت العينين تخرجان ومن حولهما سواد حالك، سرعان ما تبين لي أن الذي حفر النفق أرنب عملاق، فراؤه باللونين الأبيض والأسود. تشمم الهواء من حوله ثم قفز قفزة طويلة، قفزت أنا على إثرها مترًا للخلف، ثم انفجرت في الضحك. هذا أرنب يعدنا بملوخية بالأرانب غدًا. لكن من أين جاء؟ لا بد أنه اتخذ مسارًا غير مألوف من السطح إلى هنا.

جريت خلفه لأمسكه، وظل يقفز هنا وهناك حتى دخل تحت الفراش. مددت يدي أخرجه، فعضَّني عضة قضمت عقلتي السبابة والوسطى من يُمناي. صرخت، ثم سمعت طرقات على الباب يسأل صاحبها ما إن كنت بخير. فتحت الباب والدم يغرق يدي وسروالي. دخل أحد الرجال المقيمين في اللوكاندة ونادى على آخرين. فهم مني المشكلة، فجثا على الأرض يضرب ما تحت الفراش بعصا المكنسة حتى خرج الأرنب اللعين. أمسك به من أذنيه ورفعه أمام عينيَّ. وجهه البريء وأنفه المتراقص يغيظانني. أمسكت به وضربته في غلٍّ مرات إلى الحائط حتى صار كالخرقة الدامية. كانت ليلة سوداء أمضيتها أنا وشوكت والرجال في طوارئ المستشفى.

عدت ليلًا لأجد جيفة الأرنب في مكانها، ورائحة الدم تفعم هواء الغرفة الراكد. تمددت على الفراش لا أقوى على فعل شيء. في الصباح وجدت باب الغرفة مفتوحًا، وزكية تنظف المكان.

- كيف دخلتِ؟

- وجدت الباب مفتوحًا، قلت لنفسي لأنظف ما فعلت بالأرنب المسكين قبل أن (يضرب فيه الدود). ما الداعي لكل هذا؟ كنت لتتركه للرجال يأكلونه.

- لقد قضم إصبعيّ. ألا ترين؟!

- أرى. لا بد أنك (تغاشَمت) عليه. أعرفك جيدًا.

خرجت وهي تحمل الدلو والخرق المتسخة. يبدو أنني ثملت بعدما عدت حتى نسيت أن أوصد الباب بالمزلاج.

مر اليوم كما تمر باقي الأيام، حتى إذا جاء المساء سمعت شوكت ينادني نداءً هامسًا من بئر السلم. ذهبت إليه في غرفة المعلم، فأشار لي أن أدخل. لفحني هواء التكييف البارد فكرهت حياتي أكثر. كم سيمضي من عمري حتى يحق لي الاستمتاع بمالي؟ أدخلني إلى الحمام الصغير المرفق بالغرفة، وفتح ستار مغطس الحمام لأرى..

- ما هذا؟

- لا أعرف. إنه.. إنه ينبض.

ركعنا إلى جوار المغطس، وحرّكت الشيء الدامي مثلث الشكل في حجم الكف بطرف علبة شامبو. تقلص الشيء وانتفخت العروق الزرقاء التي تغطيه، ثم سكن مرة أخرى. يبدو لي كعضو ما. لكن ما هو؟ معدة مثلًا؟

كبُر الشيء تدريجيًا أمام أعيننا. تراجعت إلى باب الحمام وأنا أجُر شوكت معي إلى الخارج، ثم أوصدت الباب وأمسكت المقبض في قلق، وكأن ما بالداخل قادر على فتحه. أنصتنا.. سمعنا صوتًا مائيًا لزجًا.. صوتًا يشبه الصوت الذي يخرج من الدجاجة المذبوحة وأنت تسحب أحشائها إلى الخارج. صوت شيء مبتل يسقط على الأرض. صوت أنين منخفض. صوت الأنين يعلو إذ يقترب مصدره من الباب. لا زالت علبة الشامبو في يدي. سأفتح الباب وأضربه بها. ماذا سأضرب؟ لا أعرف!

صوت بكاء رضيع خلف الباب وطرقات واهنة فوق العتبة مباشرة. سألني شوكت في جزع عما سنفعل، فنفذت خطتي. تعلمنا من المعلم أن ننفذ ثم نسأل لاحقًا.

فتحت الباب سريعًا، فرأيت مولودًا داميًا بلا عينين، يصرخ بلا انقطاع، ويطرق بيده الصغيرة على الهواء. لن أفكر في شيء سوى في الخلاص من هذا المسخ. هويت عليه بعلبة الشامبو، ثم جثوت أضربه بها حتى انثنت وانكسرت وانسكب ما بها على الكتلة الدامية الصارخة. رميت العلبة ولكمت الشيء حتى صمت وسكن. وجهي ويداي عجينة من الدم والشامبو. مزيج الرائحة دفعني للقيء، فتقيأت. عندما أدرت رأسي بعيدًا عن المرحاض، رأيت شوكت وزكية يقفان متسعي الأعين. غمغمت زكية:

- لقد.. كان وليدًا..

صحت في غضب:

- ومن أي شيء وُلد؟ هه؟ أكان ما في البانيو رحمًا؟!

انطلقت خارجًا من الحمام إلى برودة التكييف، وارتميت على الأريكة ألوثها. بعد ربع ساعة ذهبت إلى الحمام المشترك في الطابق الثاني أغتسل. تحت (الدش) سألت نفسي: «**ماذا يحدث يا مرعي؟ لو كان لوجود الأرنب تفسير، فما تفسير هذا الشيء الذي انفجر وخرج منه جنين استطاع أن يحبو حتى الباب، بل وقرعه؟! هذه أفعال جنٍّ ولا شك**».

***

في الليل سمعت صرخات في الشارع، نزلت بسرعة لأجد امرأة من أهل الشارع تصرخ جوار صفيحة الزبالة المنسكبة على الرصيف أمام اللوكاندة.

- النجدة يا خلق! خرج من الصفيحة طفل.. قتيل.. بلا عينين.. ودفعني وجرى من هذا الاتجاه! أنا لست مجنونة.. انظر يا معلم مرعي..

ومدت ذراعها المكسو بكُم العباءة البنية، لأرى لطخة داكنة، و.. وبقعة شامبو بيضاء رائحتها تغني عن الفحص. قلت لها أنه ولا بد قط ضخم، وأمرتها أن تعود إلى بيتها لأنها –ببساطة- مجنونة. دحرجت الصفيحة على الرصيف لأرى ما فيها، فوجدت خرق القماش التي استخدمتها زكية في تنظيف بقايا الأرنب، وخرقًا أخرى ملوثة بالشامبو والدم. ولا أثر للمولود ولا للأرنب..

صعدت إلى غرفة شوكت حانقًا، وقرعت الباب حتى فتح. يبدو أنه كان نائمًا ولم يدر بما حدث. حكيت له، ثم صحت في زكية:

- ترمين بقايا كهذه في الزبالة أيتها الغبية؟! دعكِ من الأرنب، ماذا لو وجد أحدهم الجنين وطلب الشرطة؟

قالت في برود وهي تدفع شعرها إلى داخل حافة الإسدال الذي ارتدته على عجل:

- هذا أنت يا مرعي. تترك المصيبة وتبحث عمن تلومه. عمومًا أنت مَن قتلت الأرنب والطفل لا أنا. في المرة القادمة سأتركك تتخلص من الجثث على طريقتك. لكن قُل لي، أين ذهبت البقايا؟ وكيف كبُر المولود وقام هاربًا مع أنه ميت، ومع أنه مستحيل أن يكبر في غضون ساعات؟

قال شوكت أخيرًا بعدما حسبته قد أصيب بالخرس:

- اللوكاندة مسكونة بالجنّ. لا تفسير آخر.

- ولماذا شكِنت الآن فقط؟!

نظرت لي زكية ثم لأخي وقالت:

- الدم يُنجّس أي مكان، والنجاسة تجلب الجن الكافر. أنتما السبب. هاتوا نصيبي واتركاني أذهب لحال سبيلي.

قام شوكت محمر الوجه، وقال من بين أسنانه:

- لن يرحل أحد. نحن في هذا معًا. عمومًا، إن كان هذا آخر الجن في الشر، فنحن لها. المزيد من الرعب لن يضر الرجال.

مكثت في غرفة شوكت ساعتين أخريين، شربنا الشاي، ثم البيرة، حتى شممنا الرائحة قبل أن نسمع صوت الطرقات على الباب. هذه المرة الطرقات قوية، تضرب أعلى الباب لا أسفله. صمتنا لدقائق والقرعات تتوالى، ثم سمعنا صوت خطوات تبتعد ثم تنزل الدرج. كيف دخل وسيخرج هذا الشيء وعثمان يحرس المدخل ويراقب الداخل والخارج؟

أطللنا من النافذة، لنرى الشارع الخالي. الشيء لم يخرج. بحرص فتحنا الباب، ورأيناه ملطخًا من الخارج بكف دامية، وبقايا جلد. نزلنا الدرج الملوث وناديا على عثمان، فأجاب بصوت ناعس. سألناه إن كان رأى غريبًا يدخل، فقال أن (عينه غفلت) دقيقة، لكنه كان ليشعر لو مر أحد من أمامه.

نمت على الأريكة الصغيرة خلف مكتب المعلم، ودخل شوكت إلى غرفته وزوجته، والتي اقتطعها بساتر خشبي من مساحة الغرفة. ظللت أحدق إلى المكان الذي كانت فيه الخزينة، وإلى مكان البساط الذي مات عليه المعلم، وإلى..

استقمت فَزَعًا وأنا أرى نبات الزينة في الإصيص ينمو ويتشعَّب كشجرة لبلاب، لكنه لم يكن لبلاب، بل نبتة شوكيَّة لم أرَ مثلها من قبل. زحفت على الحائط أمامي، فصرخت:

- شوكت!

هبَّ أخي خارجًا وخلفه زوجته. ما أن رأت ما يجري، حتى فتحت الباب وهرعت خارجة. ابنة أصول حقًا. كاد شوكت يلحق بها، لولا أن رأى النار تشتعل في الزرع. قفزت من فوق الأفرع السميكة المتشابكة التي غطت الأرضية في ثوان، الشوك يدمي قدميَّ.. وقف شوكت لحظات مكانه، ثم هرب! حقًا؟

زحفت على الأشواك، وقبل أن أخرج من حدودها، قفز فوقي شيء صغير ثقيل، وراح يعُض صدري بعدما طرحني أرضًا، وهو ينظر لي بعينيه الحمراوين. الأرنب اللعين!

صرخت بأعلى صوتي، ولم يحضر أحد. هل الرجال نائمون مع أهل الكهف؟!

جذبت الأرنب من ظهره، حتى تمزق فراؤه وهو بعد يثبت أسنانه اللعينة في صدري. الألم لا يطاق وظهري يحتك بالأشواك، والنار تحيل الغرفة إلى فرن. سمعت صوتًا هامسًا يقول لي: «**لو أنكما تركتماه يشرح..**»

انقلبت على بطني، أزحف والأرنب متدلٍّ من صدري حتى خرجت من الغرفة، وانتزعته فتحلل بين يديَّ، وظلت أسنانه مكانها. يدي المضمدة قد تشرَّبت دماء الطفل ودماء الأرنب ودمائي. جذبت الضمادة وألقيتها بعيدًا. خياطة أصابعي انفتحت مرة أخرى، وسال منها الدم على الأرض. صرخت:

- شوكت! زكية!

ثم أخيرًا ظهر رجلان ناعسان من النزلاء، وهرعا نحوي جزِعَين. دفعتهما وكررت ندائي، وأنا أبحث عنهما في جنون. لقد فر اللعينان.

***

في الصباح، وأنا جالس وسط حطام المكتب والماء والنباتات المحترقة، فطنت إلى أمر هام. هذه الأشياء تهاجمني أنا! رغم أن شوكت هو مَن قتل، ونحن

الثلاثة شركاء فيما فعلنا. فلماذا أنا، بينما يرتع شوكت في النعيم، ولا يلوث يديه بالدماء، ولا يفقد لحمه بسبب أرنب متوحش؟

زكية اللعينة الخبيثة ثابتة الأعصاب، تتخلص من الجثث في القمامة ولا تهتم للعواقب. أم هي تعرف أنها لن تواجه عواقبَ؟ زكيَّة تكره المعلم منذ وعينا على وجودها، وتكرهنا لأننا كنا مقربين منه، ومع ذلك تتزوج أخي لأجل المال والهرب من معيشتها الضنك.

فلماذا لا تكون هي من سحرت لي للتخلص مني وللاستحواذ على نصيبي من النهيبة؟ ربما تتخلص من شوكت لاحقًا بالطريقة نفسها. أم.. أم أن شوكت متواطئ معها؟! لقد تركني أحترق! تركني أواجه ما خلف الأبواب وحدي. شوكت القاتل قرر أن يُحملني أنا تبعات جريمته.

يجب أن أعثر عليهما..

لقد اختفى المال الذي خبأناه مرة أخرى على السطح. مالي.. ثمن شقائي..

جئت بشيخ الجامع يقرأ القرآن في اللوكاندة بناء على اقتراح النزلاء. لا بأس. لا أعتقد أن الله سيقبل من فمي الآثم ترتيلًا ولا دعاء ولا مناجاة. قال لي الشيخ قبل أن يرحل:

- يبدو أن هذا سحر يا معلم مرعي. لقد مرض المعلم شعبان فجأة وصار يذوب كالشمعة. في أواخر أيامه طلب مني أن أرقيه، وطلب أن أتصدق على روحه كل جمعة بمبلغ استودعه صندوق النذور في الجامع. أخبرني أن ما يحدث له نتيجة ظلمه، وأنه عازم على التوبة وإرجاع الحقِّ لأصحابه حتى لو مات قبل ذلك. ربما سَحِر المعلم واستمر السحر في المكان بعد موته. ربما مَن يفعل هذا قرينه، يطالب بإعادة الحق إلى أصحابه. ابحث عن وصية له هنا أو هناك.. ربما يرتاح في قبره، ويُبطَل السحر.

بينما تُنظِّف الغرفة، جلستُ في صدر المقهى أدخن وأفكر. سحر استمر بعد وفاة المعلم وأصابنا؟ لقد أصابني أنا ولم يصبهما. فكرة قتل المعلم شعبان هي فكرة شوكت، وإن كان هو مَن سحر للمعلم، فلماذا قتله ولم ينتظر أن يموت وحده؟

زكية.. زكية كانت تراقب المعلم ورأتنا نخرج بعد قتله. كانت تنتظر موته لتدخل وتأخذ المال من الخزينة. هذا سِحر زكية، وربما هي مَن يحمي شوكت. ربما شوكت ليس محميًا، لكنه قد صار جبانًا يهرب من المواجهة، بعدما أصبح له ما يخاف عليه من مال ومنصب وزوجة.

أنا المقطوع من شجرة، الذي ليس لديه ما يخسره.

نعم.. ليس لدي ما أخسره، لكن لدي ما أكسبه.

***

في الأيام التالية تكرر كل شيء. الأرنب يخرج من الحائط، من بالوعة حوض الحمام، من سم الخياط.. لا يهم، المهم أنه يدخل من أي مكان غير منطقي، ويهاجمني. ينهشني، وصرت أنهشه أنا أيضًا، ننهي معركتنا وكلانا ملوث الفم والأظفار.

ثم يأتي الجنين أو الولد أو الشيء الذي صار رجلًا الآن، مدممًا يفوح برائحة الشامبو. يطرق الباب. يُلِح. أفتح له وأضربه ويضربني بقوة عاتية حتى يتمزق، ويجر أشلاءه ويهبط الدرج.

ثم ينمو النبات المهذب فيصير شيطانيًا سافِلًا، يطاردني، يلتف حولي، يحترق، أتخلص منه وقد صار جسدي مصفاة شاي من أشواكه.

وفي كل يوم تتغير تفصيلة صغيرة، أو يظهر شيء جديد، مثل ذلك الدمَل الذي ينبت في قفاي ليلًا، ويتحول خلال دقائق إلى رأس مشوه صغير يهمس في أذني: «**لو أنكما تركتماه يشرح..**». أضغط عليه بمنشفة حتى أفقأه، فيلوث سيراميك الحمام خلفي.

تتنوع الأهوال، ولا يسمع أحد صراخي إلا في النهاية. أيقن الجميع أنَّ اللوكاندة مسكونة، وهجرها سكانها خلال أسبوع لا أكثر. يجب أن أرحل، لكن إلى أين وأنا لا أملك قوت يومي، وقسط اللوكاندة والمقهى يلوح عند أفق أول الشهر.

فتحت المقهى، وجلست في فخر أمامه، أرتدي جلبابًا نظيفًا، لكن وجهي وجسدي مغطيان بالجروح والخدوش والحروق. أبدو مخيفًا، مرعبًا، جزءًا من أسطورة اللوكاندة المسكونة. في الليل، ومع بداية ظهور الأرنب، أبيت في الشارع لأول مرة. أتكور خلف عربة الكبدة المظلمة عند الناصية، وأغطي وجهي كي لا يتعرفني أحد. أريد أن أنام.. أرشف من (مِشط) الخمر المعدني وأنا أنعس. أرى العينين الحمراوين تنظران لي من داخل عربة الكبدة. سحقًا! هذا الشيء يطادرني أنا ولا يسكن المنزل! هذه لعنة لن يفلح معها الهرب. لكن لن أموت. لن أتركه يقتلني قبل أن أقبض روح شوكت وزكية اللعينين.

رائحة الشامبو.. الشجيرة النحيلة تكبر وتتشعب.. الحريق.. كل شيء يتكرر في الشارع.

أهرع إلى المسجد لأجده مغلقًا، ولن يُفتَح إلا قبيل الفجر. أعود إلى اللوكاندة، والدمل يهمس لي. أضربه بكفي كأنني أقتل بعوضة. أصعد درج اللوكاندة إلى غرفة المعلم، وأشغل التكييف والتلفاز وأضيء الأنوار. أشرب وأصرخ: «**ماذا تريد مني؟! المال ليس معي! أنتَ من ظلمت واغتصبت وسرقت وقتلت لا أنا! ماذا تريد؟!**» ثم أرتمي على الأرض وأنام.

في اليوم التالي، وبعد الأرنب وما يليه، جلست في الظلام أفكر في الاستسلام أخيرًا، لكنني سمعت صوتًا خافتًا بالأسفل، ثم صوتَ أحد يصعد الدرج. أقترب من باب الغرفة وأنظر من بين شقٍّ طولي فيه إثر ضربة عظيمة ضربتها للمسخ الدامي. رأيت ضوء كشاف يتحرك، و.. شوكت يصعد الدرج إلى الطابق التالي.

عاد شوكت!

انتظرت حتى ابتعدت خطواته، وصعدت خلفه حتى السطح. رأيته يدفن حقيبة المال خلف طبق الدّش، ثم يقوم فيراني خلفه، أرفع زجاجة الخمر وأضرب بها رأسه. تهاوى أرضًا لكنه لم يفقد الوعي. هممت بضربه مرة أخرى، لولا رأيت الفجوة مكان عينه اليسرى، وحرقًا ملتهبًا يغطي ساعديه.

- انتظر يا مرعي..

- ماذا حدث لك؟

- لن ينتهي الأمر بهربنا يا أخي. ويبدو أنه لن ينتهي إلا بموتنا. قررت أن أعيد المال إلى مكانه، ربما..

- ربما ماذا؟ لا علاقة للأمر بالمال الآن. هل سحرت لي زوجتك يا شوكت؟ هل سحرت لنا كي تتخلص منا؟ لماذا هربت يا شوكت وتركتني أحترق؟

- أنا لم أتركك! لقد رأيتك تتفحم تمامًا! تتفحم أمام عينيّ كما تفحّم أولاد أبي هاشم أمام عينيّ عندما أحرقث بهم الشونة.

أنزلت الزجاجة وأنا أتذكر حريق النبات الذي يطاردني. لم يكن إحراق أولاد أبي هاشم بأمر الحاجّ شعبان هو الحريق الوحيد الذي تسببنا فيه. لقد أحرقنا غيظ عائلة السمّان بأمر الحاجّ، وذبحنا كبير العائلة أمام عيني أحفاده، كي لا يفكروا أن يرفعوا رؤوسهم يومًا في عيني شعبان، كأنّه ظنّ أنّه سيعيش أبدًا، أو حتى سيعيش حتى يكبر الأحفاد ويسعون للانتقام..

لقد.. لقد فقأنا عين رجائي همام الذي تجسس على الحاج يومًا وحاول إفشاء أمر لياليه السريّة، وها هو شوكت أمامي مفقوء العين، ذراعه محترق، أكاد أجزم أنه حرق بالحمض، كما أمر الحاج بتشويه سعاد الجوهري التي رفضت أن تكون عشيقته.. لكننا لم نلق الحمض على جسد سعاد، أحد أذرع المعلم الأخرى هو من فعل ذلك، فلماذا نُعاقَب على ما لم نرتكب؟

جلست جوار شوكت أسرد له ما دار في عقلي، فقال وهو يمسك رأسه بكفيه:

- يبدو أننا نعاقَب على أفعال المعلم نفسه.

- لماذا نحن؟!

- لأننا قتلناه؟ لأننا.. لأننا لم نمنحه فرصة التكفير عن آثامه؟

- مَن يعاقبنا إذًا؟! الله لا يعاقب الناس بهذه الطريقة! هذا.. هذا سحر! شُغل عفاريت!

هل ما قال شيخ الجامع صحيح؟ أحدهم صنع سحرًا للمعلم، وورثنا نحن هذا السحر مع ما ورثنا من مال؟ الصوت الذي يهمس لي: «**لو أنكما تركتماه يشرح..**». هل حاول المعلم قبل موته أن يخبرنا بأنه مسحور؟ لا تفسير سوى ذلك.

- والعمل يا شوكت؟

- نترك المال هنا ونهرب.

- ستلاحقنا المسوخ. لم يكن المال معي منذ رحلتما، ولم يستجد على وضعي شيئًا.

- إذًا.. نتبرع به لأي مكان.

- اخرس! لا تفكر في هذا أبدًا! هذا مالنا نحن!

- أعطني نصيبي إذًا أهبه لوجه الله وافعل أنت ما تريد!

- لا مال لك عندي يا شوكت. إن لم تتحمل معي نتيجة فكرتك اللعينة، فلتَمُت هنا والآن.

كسرت زجاجة الخمر بضربها في الحائط المجاور، وهممت بغرسها في عنقه، لولا شعرت بضربة تُلهِب ظهري، ورأيت شوكت يتراجع إلى الخلف مرتعبًا..

نظرت ورائي لأرى كيانًا في طول البشر وهيئتهم، لكنه بلا رأس، وبدل كفيه سَوطان عظيمان يضرب بهما الأرض ثم يضربني مرة أخرى فيصيب صدري. الكيان الداكن يضرب الأرض فينطلق الشرر، ثم يضرب شوكت. يزحف الأخير وهو يصرخ نحو باب السطح، بينما أحفر أنا الأسمنت الطري بأظفاري لأخرج حقيبة المال. لن أخرج من المولد بلا خمص.

يضربنا، فنصرخ وننزل الدرج، نتدحرج، السوط يشق الحائط جوارنا، السقف يسيل ترابًا فوق رأسينا. يصرخ شوكت بي:

- اترك هذه المال النجس واهرب!

- لن يحدث هذا!

يجري أمامي في الشارع المظلم، يرتطم بصفيحة الزبالة الخالية، فتتدحرج ويخرج منها الأرنب ليقفز نحو وجهه ويقضم أنفه. عند أول الشارع أرى زكية على الأرض، والكائن الدامي فوقها، لا يفعل شيئًا سوى النظر إليها بلا عينين، والشامبو والدم يقطران على وجهها. أقف بين شوكت وزوجته حائرًا، والسياط تلهب جسدي. أضرب الأرنبَ بحقيبة المال، ثم أهرع إلى زكية أخنق الكائن بلف ذراع الحقيبة حول عنقه، حتى تستطيع الهرب من تحته. الكائن يغرغر وهو يردد: «**أمًا**». لا يهم الآن أن أنقذ أحدًا.. لن ينقذني أحد.

أعدو في الشارع وأنا أصرخ. ملابسي ممزقة.. عوراتي النفسيَّة والجسدية تنكشف للعيون الناظرة من الشرفات. المعلم مرعي وأخوه وزوجة أخيه جُنُّوا،

تطاردهم العفاريت جزاءً بما كسبت أيديهم. أعرف ما يتهامسون به عنّا، وعن جرمنا الذي أخفيناه فانكشف من لدُن حكيمٍ خبير. لم ينجدنا أحد..

أعدو، بعد دقائق أسمع صراخَ شوكت وزوجته يعدوان ويلهثان، أنظر خلفي لأرى وجه أخي بقعة دامية، وزوجته تلملم أشلاء عبائتها الممزقة من ضربات السوط.

إلى أين أذهب؟ عن يميني نفق السبتيَّة الخالي في تلك الساعة المتأخرة. أرى حوائطه مغطاة بالأشواك المتسلقة. من ظلمة النفق يبزغ نور مزدوج، كأنه عينان صفراوان. ميكروباص أبيض وحيد يسير في ثقة بسرعة متوسطة وسط النفق، ثم يخرج منه ويتوقف لي.

أضرب على زجاج باب سائقه الأسمر ذي الملامح الصعيديَّة الواضحة. يتلوث الزجاج بلطخات الدم. لا أريد أن أفزعه، ولا أريده أيضًا أن يرحل ويتركني.

- النجدة يا بلدينا.. بلطجية.. بلطجية يطاردونني.

- إلى أين أنت ذاهب؟

- أي مكان.. أي مكان يا بلدينا..

الرجل هادئ بارد. إن كان قاتلًا أو منحرفًا فأنا لها. المهم ألا يكون (منهم). أركب بسرعة، وآمره أن يتحرك، لكنه ينتظر، ينظر إلى أخي وزوجته المستغيثين.

- هل هما معك؟

ترددت قليلًا قبل أن أجيبه: «**نعم**». اعتصرت حقيبة مالي أكثر وأنا أنتقل للركوب إلى جوار السائق، بينما يركب أخي وامرأته في المقعد الخلفي.

- إلى أين ستذهبون؟

- إلى أي داهية الآن. هيا يا أسطى!

انطلق الميكروباص متهاديًا. صوت الراديو يصفو تدريجيًا وأسمع صوت فريد الأطرش يغني

«يا مقبِّل يوم وليلة، أطوي السكة الطويلة، وديني بلد المحبوب..»

سألني السائق:

- إلى أين؟

- قلت أي مكان. إلى أين أنت ذاهب؟

- أنا في طريق سفر طويل لا ينتهي، كلنا كذلك. دع الطريق يختر لك.

أسرعت السيارة أكثر. ظلت زكية تكرر السؤال عن وجهتنا وهي تنظر في رعب حولها إلى الطريق الخالي. المفترض أننا قرب شارع نجيب الريحاني ومقهى أم كلثوم، فأين هما؟ الشارع هو الشارع، لكن المعالم مختلفة، كأنها تختفي تدريجيًا، ويحل محل كل مَعلَم على الطريق أرض زراعية. الكابوس مستمر إذًا! هذا الميكروباص جزء من اللعنة!

- سننزل هنا.

- انتظر قليلًا بعد.

- بل سننزل. توقف!

- ستنزل حين تأتي محطتك، وحين تأتي محطتك ستعرفها.

الطريق صار زراعيًا بالكامل، حارة واحدة ضيقة. ظلام تام إلا من نور كشافي السيارة.

«يا مقبِّل بين خضرة ومية، متى نلقى أبو وجه مليح..

وح نوصل غدا ولا عشية روح بينا، روح سابق الريح..»

ما هذا على جانب الطريق؟ جثة؟! جثة مفتوحة البطن، قفصها الصدري مشقوق وأضلع صدرها منتصبة إلى أعلى كأشعة الشمس في رسوم الأطفال. صوت طلقات نارية بعيدة..

دون إنذار، لف شوكت ذراعه المحترق اللزج حول عنق السائق وفحَّ في أذنه:

- أين نحن؟ مَن أرسلَك؟

دون أن يجفل أو يتغير تعبير وجهه الشارد، غرس السائق أصابعه في ذراع أخي الملتهبة، فصرخ وأطلق سراحه، ثم زاد سرعة السيارة حتى صعد جسرًا طويلًا يمر فوق مجرى مائي لا أرى ضفته الثانية. الجسر طويل، ضيق، كأننا نطير في الظلام الدامس. صرخت زكية وهي تسبُّ المعلم شعبان، ثم هتفت:

- لعنة الله عليه أينما كان. لقد انتهكني وكسرني وقتل ضناي –ضناه- والآن أنا أُعاقَب؟! لماذا؟!

نظرت لها متسائلًا. هل كان للمعلم شعبان علاقة بها؟ كيف لم نعرف؟ أجاب شوكت تساؤلي الصامت وهو يجز على أسنانه:

- لقد تزوجها عرفيًا وهي بنت ستة عشر عامًا، وعندما حملت أجهضها عند داية بلا رحمة، أنهت أي أمل لها في أن تكون أمًا. كيف نعاقب إذًا وهو قد اقترف كل هذه الآثام ومات دون شكّة إبرة؟

ضحك شوكت ضحكة كشفت عن أسنانه الداميَّة، وأردف بصوت مكتوم جراء نزيف أنفه:

- أم ترى مرضه كفَّر عنه سيئاته، وهو الآن يتنعَّم كما تنعم في الدنيا، بينما (نطفح نحن الدم) ونُحرق ونُعذب أحياء وأمواتًا؟

صوت شوكت، وتلك الأفكار السوداء التي كانت وقود حياتنا طيلة عمرينا، والسواد المحيط بنا يجعلني أشعر كأنني أموت، أو أنني مث بالفعل وهذا الفراغ هو عذابي الذي تجلدني فيه تلك الأفكار والأحقاد. هل الله غير عادل حقًا، أم نحن الطامعون؟

لا هذا ولا ذاك. نحن نسعى، وليس للإنسان إلا ما سعى؟ أليس كذلك؟ أضغط حقيبة المال إلى صدري أكثر، والسيارة تعبر إلى الضفة الأخرى، حيث الترعة عن يميننا وحجرة بالطوب اللبِن، والخوص بينها وبين الطريق.

توقفت السيارة، يأمرنا السائق بالنزول عند غُرزة من غُرِز الطرق الزراعية الشهيرة. أي طريق هذا؟ هل متنا حقًا وهذه هي الحياة الأخرى؟

نزلنا، وما أن فعلنا حتى انطلقت السيارة مبتعدة، واختفت في الظلام.

دخلنا الحجرة فلم نجد فيها شيئًا سوى بعض الأصص والقُلَل. وراءنا الترعة، وأمامنا حقل قصب. في الصباح أدركنا أننا هنا بمفردنا تمامًا.

نحن في منفى من نوع لم نسمع به من قبل. لقد متنا بالحياة..

***

المكان: الطريق- الغرزة

الزمان: 2024

يقول مرعي:

- شربنا من الترعة وأكلنا من شجرة جميز قريبة. انتزعنا ملابس الجثث المتناثرة التي وجدناها على طول الطريق، وغسلتها زكية. مع الوقت تعلمنا الحفاظ على بذور ما نأكل مما ينبت هنا لنزرعه. على الطريق راعي غنم جلبه سوء حظه إلى هنا. لا أقول أن كل أغنامه (سليمة)، بعضها نسميه غنم الشيطان، خاصة قطيع الماعز الأسود الذي يسير على قائمتيه الخلفيتين. هذه لعنة قطيعه، لكنه وجد هنا أغنامًا وبقرًا، وهو يرعاها ويأكل منها. نعطيه الخمر ونسمح له بالرعي والشرب من الترعة، ويعطينا من ذبائحه كل فترة.

يسأل أسامة:

- تعيشون هنا على المقايضة؟ المكان هنا بدائي تمامًا؟

- نعم. لا كهرباء ولا راديو إلا راديو سيارة عبد السميع، ولا أي شيء. البعض يموت هنا منتحرًا، أو متأثرًا بمرض أو جرح، أو يقتله الخيالة ويقتاتون على جثته.

أسأل أنا:

- ألا يأكل الخيالة ما تقدمون لهم؟

فيجيب يونس وقد أفرغ قرعة البوظة كلها في جوفه:

- يأكلون طعامنا نهارًا، ويقتاتون على الجثث ليلًا. هل تسمعين هذا الصوت؟

أسمع صوت اللهاث بالطبع. يقول لي يونس أنهم يتحولون إلى غيلان ليلًا. تحكي زكية أنهم يفككون أي سيارة تصادفهم، ويسرقون منها الوقود والركاب إن وُجِدوا.

إذًا لا يأتي كل من أتى إلى هنا مع عبد السميع. البعض يأتي بسيارته أيضًا. غريبة. هل هذا المكان موجود منذ البداية وعبد السميع اكتشفه فقط، ووجد طريقة ليخرج منه ويدخل إليه؟ أين هو الآن؟ لماذا لا تهاجمه الخيالة؟

قبل أن أفكر في قول شيء آخر، يتحرر الأرنب أخيرًا من الحائط. ينظر حوله، يتشمم الهواء. يضربه يونس بالعصا، فيقفز قفزة طويلة، ثم ينظر لي.. لي أنا.

أصرخ. لو كان شيطانًا لصمدت، لكني من الجَبل الذي أفسد عليه هيتشكوك شعوره بالأمان في وجود كائنات تبدو لطيفة كالأرانب والعصافير بفيلمه (الطيور). خبَّأني أسامة خلفه، وراح يضرب بقدمه الأرض ليرعبه. ضربه يونس مرة أخرى، بينما يشرب مرعي شرابه المُحرم، ويناول الوعاء لزكية لتشرب. يصيح أسامة:

- ماذا فعلتم لتفادي هذا الشيء من قبل، وما سيليه على حد قولكم؟

يجيب مرعي وهو يهز كتفيه في لا مبالاة:

- لا شيء. فقط نشرب ونرتجل.

يضرب يونس الأرنب مرة أخرى، لكنه يقفز إلى صدر أسامة، ومن صدره إلى كتفي. أضرب بيديّ وأصرخ ويحاول أسامة انتزاعه عني. يستسلم الحيوان لجذب أسامة دون أن يصيبني بأذى. ظل يحدق إليّ وأسامة يحمله من قفاه. ما أن اقترب منه يونس مرة أخرى حتى فتح فمه، ورأيت سنيه الأماميين مدببين كالأنياب. غرس يونس العصا في حلقه، فرمى أسامة الأرنب وعاد يحيطني بذراعه وهو ينظر إلى الجسد المنتفض على الأرض حتى سكن.

- هل أنت بخير يا سهير؟

- بخير.. لكن.. ما هذا؟! وهل.. هل سننتظر أن يظهر الشيء الدامي و.. وكل شيء؟!

يقول يونس وهو يرتمي على مقعد سيارة في الركن:

- سيأتون تباعًا. اشربا وستمر الليلة كما تمر علينا دائمًا. إن كنت لا تستطيع الفرار من شيء، تجاهله.

يسأل أسامة محتقن الوجه:

- وأنتَ؟ أنت لم تكن معهم حين أتوا إلى هنا.

- أنا هنا منذ أربع سنوات. كنت سائق سيارة أجرة؛ أوبر. في ليلة طلبني زبون لأذهب به إلى عنوان في المنصورية. وصلنا المكان، وطلب مني الرجل أن انتظره ريثما ينهي مهمته. وافقت لأنني كنت سأعود بلا زبائن من هذا المكان المقطوع. خرج بعد ثلاث ساعات لم يجب فيها على اتصالي، وأعطاني حقيبة جلدية كبيرة، طلب مني أن أوصلها مغلقة لشخص في عنوان آخر، وأعطاني ألف جنيه مقابل ألا أفتح الحقيبة وأوصلها بسلام. لعب بالفأر في عِبِّي، هل هو تاجر مخدرات؟ ربما. لكنها ألف جنيه، والمشوار قريب للغاية. لمَ لا؟ عمومًا لو اتضح أن ما في الحقيبة ممنوعات، سأخبر الشرطة بكل شيء. الكثير يوصلون طلبات و(أوردرات) في أوبر. أوصلت الطلب بخير وانتهى الأمر. في الأسبوع التالي اتصل بي زبون آخر يقول أنه أخذ رقمي من الزبون الأول، ويطلب أن أنقله إلى العنوان ذاته في المنصورية، ففعلت، وتكرر الأمر مع الحقيبة ذاتها. الحقيبة نفسها مميزة، مصنوعة من جلد بني فاتح، وعلى هيئة جرس أو كمثرى.

في الطريق إلى مكان توصيلها، سمعت محادثة تنبعث منها. لم أفسر اللغة، وافترضت أن الأصوات مصدرها راديو داخل الحقيبة. دون تفكير فتحت جزءًا من السوستة كي أغلقه، ثم تذكرت أنّها أمانة، فأغلقت السوستة في الوقت نفسه الذي سكن فيه الصوت، ثم عاد هامسًا متسائلًا. وأنا أعطي الحقيبة لمستلمها، سمعت صوتَ نفير سيارة ينبعث من داخلها. ارتبك المستلم، فسألته عما في الحقيبة، فلم يُجِب، لكنه أخبرني أن عليّ أن (آكل عيش) بلا أسئلة كثيرة. وأعطاني ألفي جنيه.

أنظر إلى أسامة متسائلة، فيطلب من يونس أن يكمل. حكى أن الأمر تكرر على مدار أربعة أشهر، في مرات لا يصدر عن الحقيبة صوت، وفي مرات أخرى يسمع محادثات، أو صوت بائع جوَّال أو.. أو.. في مرة سمع صوت تصادم عنيف، وارتجَّت الحقيبة حتى سقطت عن المقعد.

- أوقفت السيارة، ومِلت أنصت إلى ما يدور بداخلها. صوت صراخ واستنجاد. صوت حادث كامل حتى صوت سيارة الإسعاف سمعته. تملكني الفضول. هذا ليس راديو ولا غيره. مددت يدي المرتجفة أفتح السوستة. ما أن فتحت مقدار عُقلة، حتى سمعت صياحًا من الداخل، وناسًا تنادي ناسًا. تملكني الرعب فأغلقتها. ظلت الجلبة مستمرة دقائق ثم هدأت الأصوات. منذ أربع سنوات بالضبط، كنت على طريق المنصورية ومعي الحقيبة. سمعت منها صوت صرخة، ثم رأيت دماءً تنشع من داخلها وتسيل على المقعد. كدت أحيد عن الطريق من الهلع. أعرف أن التوصيلة الواحدة الآن بخمسة آلاف جنيه، ويجب أن أحافظ على لقمة عيشي، لكن.. قبل أن أفكر، سمعت من يقرع جانب الحقيبة المقوّى ويصرخ بالإنجليزية النجدة هل يسمعني أحد. قلت بالإنجليزية: مَن يتكلم؟ فقالت المُستنجدة: هل تسمعني؟ أين أنت؟ أين أنا؟ أنا هنا في الظلام وشيء يهاجمني. طلبت منها أن تحكي ماذا حدث لها، فقالت أنها دخلت إلى كابينة هاتف، وما أن لمست السماعة حتى أظلم كل شيء حولها ووجدت نفسها في ظلام تام، حولها حوائط تبعد عن بعضها أكثر من ميل. قلت لها أنني أسمعها من داخل حقيبة، وهذا مستحيل. فتحت السوستة وقلبي يكاد يتوقف، فخرجت لي يدها تتلمس الهواء حتى قبضت على يدي. الحقيبة مظلمة تمامًا. ظلت الفتاة تكرر: اجذبني إلى الخارج، اجذبني إلى الخارج. كلما جذبتها ارتفعت الحقيبة مع يدها. ثبّت الحقيبة بقدمي وظللت أجذب وأجذب، وهي تصرخ وتطالبني بالتوقف عن الجذب. لقد عَلَقت يدها بالخارج، ولا تستطيع الآن سحبها حتى. كيف سأسلم الحقيبة هكذا؟ بعد تفكير لم يدم طويلًا، أخرجت الحقيبة وأسندت ذراع الفتاة على الرصيف، ثم جلبت (الكوريك) وهويت به على الذراع. صرخت الفتاة، فظللت أردد كل ما أعرف من اعتذارات بالإنجليزية وأنا أهوي بالكوريك مرة تلو الأخرى، حتى كاد الذراع ينفصل. ظلت الفتاة تصرخ حتى سمعت من يصيح من أول الشارع ورأيته يقترب مهرولًا. ألقيت الكوريك وعدوت وعقلي يسألني: لماذا لم تركب السيارة يا أحمق؟! هل بعد ما رأيت وفعلت رعبٌ؟! أبكي وأنا أعدو هاربًا، نادمًا عن مُجمَل ما تخليت عنهم من قبل. لكن هل حقًا تخليت عن تلك الفتاة؟ أم هي عفريتة أو جنيّة؟

سرعان ما رأيت رجلًا آخر يجري خلفي. لو توقفوا لحظة ويروا ما في الحقيبة. ماذا لو لم يجدوا فيها سوى ذراع الفتاة؟!

ضوء أصفر يعميني، يأتي من الجهة المقابلة. سيارة أجرة فولكس مما تمتلئ بها شوارع الهرم والملك فيصل. تتوقف السيارة ويسألني قائدها: إلى أين؟ فأجيبه، إلى أي مكان. وأركب. سرعان ما أجد نفسي هنا. يختار لي عبد السميع أو الطريق، لا أعرف، الغُرزة، وأكتشف بعد دقائق أنني لم أعد في عالمنا، وأنني

لن أعود إليه أبدًا. حقًا، الطريق يختار المسافرين، وقد وجدت ضالتي في الخمر الذي يصنعه مرعي.. إن كنت عاجزًا عن مواجهة شيء، تجاهله.

نتبادل أنا وأسامة النظرات. أشعر كأنني في برنامجي بعد منتصف الليل، ومطلوب مني أن أجد تفسيرًا. لم يطالب أحد بهذا، ولا يعرف أحد مَن أكون، لكن نجاتنا تعتمد على تفسيري.

صوت ارتطام شيء رطب بالأرض. أنظر إلى الركن المقابل قرب الحفرة، لأجد الرَّحم المريع كما وصفه مرعي، يتحرك ذاتيًا على الأرض. ينبض.. يتضخم..

أريد أن أخرج من هنا. لكن.. أتذكر شيئًا.. بعض ما يظهر لهم عقاب مباشر على ما فعلوه لصالح المعلم، وبعضه عقاب لما فعله الآخرون لصالحه. فقدت زكية جنينها وقدرتها على الإنجاب بسببه، والمسخ الذي سيخرج من الرحم ناداها «**أمًا**» ولم يؤذها، بينما آذى الآخرَين. أسأل بصوت عال لأخفي رعبي وأنا لا أبعد عينيَّ عن الشيء الزاحف:

- أين القائمة التي كتبها المعلم؟

يقبض مرعي على العضو المرعب بكلتا يديه، ثم يدفنه في حطَب المنقد، بينما يسلخ يونس الأرنب بشكل آلي كأنه مُخدَّر، بل هو بالفعل ثمَل. يجيب الأول وهو يلهث من المجهود:

- مدفونة في الركن. صارت بلا فائدة. نَشَع ماء الترعة عليها منذ زمن.

أتَّجه إلى الركن الذي أشار إليه، وأطلب من زكية أن تساعدني في إخراجها. يُبعدني أسامة ويجلس هو أرضًا يحفر حتى يخرج الحقيبة التي تعفن جلدها من الخارج. فتحها وسكب ما فيها على الأرض. ضحك مرعي وقبض قبضة من المال، ثم رماها في المنقد وهو يقول:

- نحتاج إلى المزيد من اللهب لشَي الأرنب.

أصيح:

- ستأكلونه؟

- أليس لحمًا؟ أكلناه مرارًا من قبل.

جسدي متجمد من فرط ما أراه من غرابة تصرفهم. أبحث مع أسامة حتى أجد بضعَ ورقات مطويَّة، ملتصقة ببعضها البعض بفعل الزمن والرطوبة. أزحف على ركبتيَّ –بذلتي البيضاء صارت كخرقة تلميع شيش النوافذ- وأفكُّ الصفحات بحرص. يسأل أسامة:

- ألم تفتحوا هذه الأوراق منذ.. قتلتما المعلم؟

- ولمَ نفتحها؟!

الثلاث أوراق الأولى عبارة عن قوائمَ بأسماء أشخاص، والجرائم التي ارتكبها المعلم في حقِّهم، والتعويضِ الذي يراه مناسبًا لهم. أغلب هذه الجرائم لا يعوضها سوى القصاص العادل. قتل، تشوية، سجن زور، سرقة ميراث، زواج عرفي لم يعترف به.. همست:

- زكية فوزي محمد.. أهذا أنتِ؟

يتجمد الجميع ويحدقون إليَّ، فأكمِل:

- المعلم شعبان كتب اسمك هنا، وأوصى لك بشقة ومبلغ مائتي ألف جنيه.

يسأل مرعي:

- وكيف كانت ستنفذ هذه الوصية ما لم يكن للمحامي علم بها؟ لقد أطلعنا المحامي على وصيته عندما عرض علينا شراء اللوكاندة بالقسط.

يقول أسامة وهو يقرأ من وراء كتفي:

- شوكت سليمان ومرعي سليمان.. اسماكما في القائمة، ولكما نصف مليون جنيه، ومقهى في العتبة على أن تتوبا إلى الله توبة نصوحًا.

يسحب مرعي الأوراق مني ويقرأ ما تلوناه عليه، وزكية من خلفه. أرى شيئًا على ظهر الورقة الأخيرة. فأقف على ركبتيَّ لأرى جيدًا، ثم أمد يدي وأطلب الورقة فيعطيني إياها. قلبي يدق وأنا أرى الرسم المربع الذي أعرفه جيدًا، مربع على شكل جسد شبه بشري، وفي وسطه أرقام وأسماء. يسألني أسامة:

- هذا هو السحر الذي أصاب المعلم وأصابهم؟

- ليس سحرًا، بل طلسم خادم من الجن.

- وما الفرق؟

- السحر تعاون مع شياطين يا أسامة، الطلسم استعانة بجن لقضاء أمر ما. كلاهما من أنواع السحر بالطبع وكلاهما محرم. لقد قال مرعي أن الصوت من الدمل يقول له: ليتكما منحتماه فرصة للتفسير، أو شيئًا مثل هذا. ماذا كان سيشرح المعلم؟ أتذكر أيضًا أن المعلم قال أنه عازم على ردّ المظالم حتى لو مات قبل ذلك. المحامي لا يعرف شيئًا عن هذه الأوراق. أعتقد أن.. أعتقد أن المعلم سخر جنيًا لرد المظالم إلى أهلها، وهي مهمة قد يستحيل على البشر تنفيذها بدقة. جني يحضر بوفاة المعلم وفاة طبيعية ويصلح ما أفسده طوال عمره. لكن مرعي وشوكت قتلاه، وسرقا الطلسم والمال الذي يبدو أنه احتفظ به

للتكفير عن ذنبه. الطلاسم عمل دقيق، شروطه قاطعة. أي تغيير في الشروط قد يُحل الجنيّ من وعده بالتنفيذ. هنا يبقى الأمر متروكًا له. إما أن ينفذ بإرادته وبطريقته، أو أن ينسى الأمر برمته.

تقول زكية وهي تضرب على صدرها:

- إذًا.. ما يحدث هو طريقة هذا الجني في عقابنا لقتل سيده وسرقة المال؟

- الجنُّ يا زكية مخلوق عاقل. ماذا كنت ستفعلين لو كنتِ مكانه؟ لقد قرر أن يتلاعب بكم ويذيقكم من شرّ ما فعلتم وما فعل المعلم. لقد اعتمد على أفعال شعبان في خلق العقاب. لكن.. لماذا يعاقب زكية؟ هل لأنها سكتت على مقتله؟

- بل لأنني دسست له السمّ في النعناع الذي شربه قبل أن يقتله شوكت ومرعي بربع ساعة. لقد سمعتهما من قبل وهما يتناقشان حول خطتهما لمنع المعلم من التصرف في ماله طبقًا لوصيته. قلت لنفسي سأقتله وأسرقه وأهرب، لكنهما أجهزا عليه قبل أن يبدأ مفعول السم. لست نادمة أبدًا. ولن أندم.

انعكس لهب النار على عينيها البنيتين وهي تنظر إلى الجنين المتفحم في المنقد. الرائحة لا تطاق حقًا. قال يونس:

- يبدو -على عكس مظهرك- أن لك خبرة في الأعمال والسحر. ألهذا السبب أنتِ هنا؟ هل هربتِ من سحر انقلب عليكِ؟

لماذا أنا وأسامة هنا؟ هل لأنّني طلبت ذلك؟ لا. لقد اختارني عبد السميع كما اختار الباقين. ماذا اقترفت أنا من ذنب؟ كامل لم يُذنِب وجاء إلى هنا يائسًا لا مجرمًا. أكمل يونس:

- لن أتدخل في خصوصياتك، لكن بما أننا محبوسون هنا، وقد حكينا لك، فلماذا لا تحكين لنا؟ الخمر يحب السمّر.

يهتف أسامة في غيظ:

- لا شان لك بنا. المهم، هل تستطيعين يا سهير التصرف في هذا الطلسم؟

- الجني يتبعهم بإرادته يا أسامة. لا شيء يستطيع إقناعه بالعكس ما لم يقنعه مرور كل هذه السنوات. لدي سؤال، كيف مات شوكت هنا؟

قالت زكية وهي تأخذ الأرنب من يونس وتثبته إلى خشبة:

- لم نقابل الخيالة إلا بعد وصولنا بأشهر. طالبوا بي، فحاول شوكت حمايتي باعتبارهم بلطجية لا أكثر. خرج لهم وأخرج فيهم غضبه المكبوت كله، لكنهم تكالبوا عليه وقتلوه، ثم تحوّلوا أمام أعيننا إلى غيلان، ونهشوه. اختبأنا في الترعة حتى رحلوا وأشرقت الشمس. تركوه عظامًا. هذه كانت بداية صنعنا الخمر مما توفره الأرض هنا. في زيارته التالية خرج لهم مرعي، وأعطاهم الخمرَ وطعامًا، وطلب منهم أن يتركونا لحالنا. هكذا تمّ الاتفاق.

- وكيف جاء الخيّالة؟

- لا نعرف. ربما هم هاربون من مستشفى المجانين. تصرفاتهم تنمُّ عن خللٍ واضح. لا أعرف لماذا يتغوّلون ليلًا، وما إن كانوا كذلك قبل مجيئهم.

يسأل أسامة بينما مرعي يتحسس قفاه متألمًا:

- كيف تحسبون الوقت هنا؟ يبدو أنَّ الليل والنهار يتعاقبان بشكل طبيعي، لكن كيف تحصون الأيام؟

يجيب يونس وهو ينظر إلى عنق مرعي من الخلف:

- بعد مشي نصف ساعة في اتجاه الشرق، ستجدون سورًا حجريًا، يدون عليه أحدهم كلّ يوم عدد الأيام التي مرت منذ.. منذ لا أعرف تحديدًا. يبدأ العد منذ عام 1944.

يصفّر أسامة دهشة. قد يكون عمر هذا المكان أكثر من ذلك بكثير. لكنَ من يكتب التقويم؟

أحدهم يضرب البابَ الحديديّ بقوة من الخارج ويخور. الخيّالة. الغيلان تريد الدخول رغم الاتفاق؟ هل لوجودنا سبب؟

أسمع همسَ الشيء خلف عنق مرعي. أحمل الطلسم وأقوم واقفة، يتساءل أسامة عما سأفعل. أدور حول مرعي المتألم الذي يضرب الرأس الصغير الذي نبت له. أطلب منه أن يكف عن ضربه لحظة. أرتجف وأحاول أن أضغط على نفسي كي أنظر إلى الوجه دون أن أصرخ. الوجه كتلة مشعرة، ذات عينين حمراوين وفم عريض بعرض الانتفاخ. أرفع الطلسم نحوه وأهمس:

- السلام عليكم إن كنت من المؤمنين. هل أنت خادم هذا الطلسم؟

- سهيرا! ماذا تفعلين؟!

- ما يجب على أي منا فعله. هذا كائن حي، ولا يمكننا أن نمكث هنا مثلهم مستسلمين. يا.. خادم الطلسم. أعرف أنّك هنا بإرادتك، وأعرف أنهم ربما يستحقون العقاب. لكن العقاب طال..

يقول الوجه هامسًا:

- أنا هنا لأنني حبيس هذا المكان. ألا تفهمين؟ ليتهما تركاه يشرح..

الجني حبيس مثلنا! لقد تبعهم في الميكروباص فانتقل معهم! ربي.. أين نحن؟ هل يعتبر عبد السميع أنَّ الجنيّ مسافر ضلَّ طريقه أيضًا؟ هل وعى لوجوده

أساسًا؟

يضرب مرعي الوجه متألمًا، ثم يضغط على جانبيه. أصرخ وأبتعد كي لا ينفجر في. يزعق مرعي:

- كفي عن الحديث معه! وجوده يؤلمني.. يفجر رأسي..

تضع زكية خرقة على قفا مرعي، ويسأل يونس:

- مَن أنت يا مدام؟ أنت تفهمين أكثر من اللازم. الغيلان تريدك أنت بالذات. ما أنت؟

يمسك أسامة يدي، ثم يصيح في يونس:

- لا توجّه لها كلامًا. لا يوجه لها أحد منكم كلامًا. مفهوم؟ هيا يا سهير. الغيلان أرحم من أولئك المخابيل المخمورين.

- ماذا سنفعل معهم يا أسامة؟! لن يرحلوا إلا عند الفجر، إن صدقت الأساطير.

- ولو انتظرنا هنا سيقتحمون علينا المكان. اسمعي.. قرأت في رواية لافكرافت (نموذج بيكمان) أن أكل الغيلان للحوم الموتى يحولهم إلى تلك الوحوش، لكنهم يظلون قادرين على فهم البشر. لماذا لا نخرج ونكلمهم؟

همست وأنا أحاول ألا يسمعني الحاضرين:

- الغيلان بالخارج لا تختلف عن الغيلان معنا هنا. كلهم يسمع البشر ويفهم، لكن لا يقودهم إلا الرغبة في نهش الجثث. على الأقل هم هنا لن يؤذونا.

وكأنَّ يونس سمع ما قلت، كرر سؤاله عني، ثم أضاف:

- لعلكِ ممن يأتون بعد الأرنب. انظر يا مرعي كيف تكلمت مع الجنيّ بكل جرأة! من أين أتيا ولماذا اختارا الغُرزة ما لم يكونا راغبيْن في الشرب والنسيان؟ لماذا اختار لهما طريق السفر هذا المكان بالذات؟

يضيق مرعي عينيه وهو يقترب مني والدم يغرق عنقه من الخلف ويسيل على صدره. قبل أن يقترب خطوة أخرى يدفعه أسامة نحو المنقد فيسقط فيه على ظهره. يندفع يونس نحونا والغضب يكسو وجهه. لماذا عاشوا كل هذه السنوات مع الخطر، وعندما جاء من يساعدهم يهاجمونه؟!

صرخت زكية وطالبته بالابتعاد عنا. قبض أسامة على عنقه، وقبض هو على عنق أسامة. الشاب أقوى وأصبى. تعلَّق في ذراعه وحاولت فصل أصابعه عن عنق أسامة، لكن الخمر كانت قد أطارت عقله. ثم يتناثر الدم على وجهي، أجفل وأتراجع خطوة، لأجد زكية قد غرست طرف العصا الذي يحمل الأرنب في خده.

يبعد يده عن أسامة وهو يصرخ ويترنّح. تصيح زكية:

- اهربا. لنهرب.. هيا..

سحب أسامة العصا من خد يونس الذي يبدو أنه فقد الوعي، ثم تعاونا على دفع الباب الحديدي جانبًا، بينما مرعي يقوم غاضبًا يندفع نحونا. لأول مرة أرى غولًا حقيقيًا في حياتي. كنت أحسبه أقرب للمستذئب مثلًا، لكن لم أرَ سوى ضبع هائل الحجم، أقرب لحجم بقرة. نظر إلينا وأطلق ضحكته المجنونة، ضحكة ضباع حقًا، ومشى نحونا ببطء والآخران مكانهما، أعينهما تضيء كالجمرات في الظلام.

قال له أسامة وهو يشهر العصا مدبب الطرف في وجهه والأرنب مغروس فيه بعد:

- ابتعد عنا. ابتعد!

أتشبث في ظهر أسامة وأنا أنظر خلفي. مرعي يقف عند باب الغرزة، وزكية تقذفه بالحصى. يتفادى مرعي المقذوفات ويقترب منها ببطء. تتراجع هي، ثم تكتشف أنها لن تنتصر عليه بهذه الطريقة، فتجري مبتعدة، إلا أنه يقطع المسافة بينهما أسرع، ويطوق عنقها بذراعه ثم يجذبها نحو الغول وهو يهتف:

- إليك عشاؤك يا ريّس. وهذان أيضًا لك. جثة كاملة لكل منكم. أنا سأعود إلى الغرزة وألتزم باتفاقنا. هه؟ تتذكر الاتفاق يا ريّس؟

يميل رأس الغول يمينًا ويسارًا، وتتسع ابتسامته. و.. ما هذه الرائحة؟ رائحة عطرية مع رائحة دم، ثم أسمع من يغمغم: «**أمًا..**»

أصرخ هلعًا وأنا أرى رجلًا مسلوخًا بلا عينين ينطلق من داخل الغرزة، ويهاجم مرعي، ثم يقتلع رأسه بكفه العملاق. أصرخ وتصرخ زكية. تزحف نحوي وتعانقني وهي ترتجف وتخفي وجهها في صدري. يهرع الغولان الآخران إلى جثة مرعي وينهشانها على الفور. يقترب الكائن المرعب منا وهو يكرر: «**أمًا..**» فأقول أنا:

- شـ.. شكرًا.. لك.. ستكون بخير. لا تقلق. يمكنك الرحيل الآن أيها الجني. أنت سامحتها، أليس كذلك؟

يطلق الغول أمام أسامة ضحكة أخرى، ثم يهم بالهجوم عليه، لكن الأرنب يتحرر من العصا، ويثب في وجهه ينتزع عينه وما حولها، ويغرس أسامة العصا في العين الأخرى. يتركنا الكائن الدامي ويمشي إلى الغول. يمسك فكي الضبع ويبعدهما عن بعضها حتى يكسرهما. يرى الغولان الآخران ما يحدث فيفران إلى الحقل بأقصى سرعة.

- هيا!

يمسك أسامة يدي، وأمسك أنا يد زكية ونجري. أين السائق اللعين؟! صوت الضباع في الحقل المجاور يبتعد. أنا خائفة.. هذا كابوس حقيقي! لم أمر بشيء

كهذا في عمري ولا أتخيل أن يكون له وجود.

بعد مائتي متر تقريبًا، نجد كُشكًا لبيع الحلوى، من تلك المتناثرة على الطرق السريعة. ندفع الباب الخشبي وندخل. لا أحد. تقول زكية:

- منذ جئنا وهو مهجور. لكن يبدو أن أحدًا قد عاش هنا في فترة ما. وجدنا هنا حلوى بدائية من عسل النحل وعجين القمح والفول السوداني. أكلناها طبعًا. كانت أرضية الكشك مغطاة بشعر أشقر طويل. الحلوى نفسها كان فيها آثار شعر. هذا الباب كان مغطى من الداخل بالحلوى.

يسأل أسامة:

- يوجد نحل هنا؟

أجيب أنا:

- لا عالم بلا نحل يا أسامة. لو أن النباتات تنمو هنا كما هو واضح، فلا غنى عن النحل. لو خلا عالم من النحل لانتهى أمره. هذا المكان غريب حقًا. مَن كان هنا وما سر صناعته للحلوى في مكان يائس كهذا؟

هزَّت زكية كتفيها، وجلست على الأرض إلى جواري، فأغلق أسامة الباب وأسند إليه ظهره وهو جالس. أعتقد أننا في أمان نوعًا، على الأقل الليلة. سنراقب الطريق حتى أن وجدنا الميكروباص خرجنا إليه. حتى هذه اللحظة السعيدة، ليس أمامنا سوى الانتظار والترقب. تقول زكية:

- أنا ومرعي وشوكت جئنا إلى هنا مُطاردين. جاء يونس إلى هنا هاربًا. هل التقيتم حقًا بالجندي عند الدُشمة؟

- نعم. جاء إلى هنا ليُكمل محاربة طواحين الهواء، بينما الخطر الحقيقي بالخارج. أخبرنا السائق أن البعض يأتون إلى مقام عند مقابر هذا العالم للتبرُّك بصاحبته. هؤلاء أتوا يائسين.

يقول أسامة:

- يبدو أن الخيالة فروا من محبسهم، وجاءوا بحثًا عن مخبأ. كل الحكايات التي نعرفها عن هذا المكان فيها عامل مشترك. كلها لها علاقة بالماورائيات. حقيبة غامضة، كائن صنعه الإسرائيليون، سحر.. أراهن على أن صاحب أو صاحبة هذا المكان والخيّالة قد واجهوا أمورًا ما ورائية. ربما عبد السميع نفسه جاء إلى هنا بالطريقة نفسها.

تسند زكية رأسها إلى الحائط وتغمض عيناها وتقول:

- لماذا جئتما إذًا؟ ما هي حكايتكما المرعبة؟

آه يا زكية لو تعرفين. ليست حكاية واحدة، بل عمر كامل من الرعب والهرب والترقب والاتهام والألم. عمر كامل فقدنا فيها حفيدنا وسعادة ابنتنا وسلامة ابننا و.. وفقدنا فيه حبنا. لم أتوقع أن يجيبها أسامة قائلًا:

- بدأت الحكاية منذ من أربعين عامًا تقريبًا. كنت في الخامسة عشرة، وكانت سهير في الحادية عشرة. أنا من دسوق، مات أبي وهو على غير وفاق مع أخيه –عمي- الذي يحب التسلط والتحكم في الناس. لم يقبل أخي إسماعيل رحمه الله هذه الحياة، فانتقلنا إلى طنطا مع زوجته وابنه الصغير عصام. لنا معارف كثر هناك. سكنّا في شقة أمام منزل الحاجّ زاهر، والد سهير. التحقت بمدرسة مشتركة، كنت في الصف الأول الثانوي، وسهير في الصف السادس الابتدائي، وأختها رجاء في الصف الثالث الثانوي. اطمأن والد سهير إلى أخلاقي وأخلاق أخي، وسمح بأن نذهب معًا إلى المدرسة ونعود معًا. حرصت كل الحرص على ألا أتكلم مع أيهما إلا في حدود عبارات ضرورية معدودة. كنت أسير أمامهما دائمًا، وإن رغبت أيهما في شيء أتوقف. دام هذا الحال عامًا، لاحظت خلاله أمومة رجاء المتدفقة، وانزواء سهير الزائد عن الحد. حتى جاء اليوم الذي عرفت فيه سر انزوائها..

***

..أخيرًا ستبتسم لك الحياة، ستنعم بطيّب العيش الذي تستحقه عن جدارة بعدما حققت شروط السعي. انتظرت أن ترى واحة غنّاء أو طريقًا مغلقًا، لكن لافتة جديدة على بعد سنتيمترات فقط من تلك التي تحمل كلمة «النهاية» كانت هناك. جاورتها معلنة بداية طريق جديد، ورحلة أطول من سابقتها..(7)

***

---

(7) من كتاب (الطريق)

حصريا على روايات وكتب عربية وعالمية
https://t.me/riwayat2025

الفصل الرابع

المكان: طنطا

الزمان: 1984

لا يرتدي الحاجُّ زاهر في غير أوقات عمله في وزارة الأوقاف، سوى جلبابٍ أبيضَ وعباءةٍ خضراءَ داكنةٍ. كان زاهدًا في كل شيء. لا يأكل إلا لقمة وقطعة جبن وكوب شاي. يصلي الصلوات المفروضة والسنن والنوافل في المسجد، ويقيم الليل على سطح منزله، كي لا يترك ابنتيه وحدهما ليلًا. طُلِب منه كثيرًا أن يؤم الناس، أو يخطب الجمعة، أو يؤذن، لكنه كان يرفض رفضًا قاطعًا، وينزوي –مثل ابنته الصغيرة- بعد ذلك أيامًا لا يخاطب أحدًا. رغم علمه الوافر بالدين واللغة وثقافته الموسوعيَّة، كان متواضعًا، أرى الألم في عينيه الواسعتين كلما مدحه أحد، كأنَّ هذا المديح سيسممه.

أحببت الحاجَّ زاهر من قبل أن أقع في هوى سهير. كان أربعينيًا وقتها، وأخي إسماعيل في بداية الثلاثينيات. بشكل ما فُتِحت العائلتان على بعضهما في حدود بالطبع، لكني اعتبرت الحاجَّ زاهر أبي بلا مبالغة. كان يشتري الحلوى من المولد لابنتيه، وصار يشتري لي أيضًا. يشتري لوازم المدرسة لهما، ويشتري لي دون سؤال. لا أعرف لماذا أحبَّني، ولا أعرف الآن هل استحققت الثقة العظيمة التي منحها لي أم لا.

***

في ليلة صيفية من عام 1985، كنت أشاهد برنامج أوسكار في التلفاز مع أخي وزوجته ورضيعهما، عندما دق جرس بابنا بجنون. فتحت لأرى رجاء مهوَّشة الشعر، في جلباب منزلي طويل، تستغيث بنا.

- أبي.. أبي لم يعد من المسجد بعد صلاة العشاء، و.. وسهير.. سهير..

هرعت وإسماعيل نعبر الطريق إلى منزل الحاجِّ زاهر. نصعد إلى الطابق الثاني حيث شقتهما، والمنزل كله مملوك لهم على أي حال ولا يسكن فيه سواهم. دخلت شقتهم لأول مرة، لأرى سهير جالسة على الأرض ترسم، وقد امتلأت الورقة التي ترسم فيها، فأكملت الرسم على الحائط والبلاط. قالت رجاء أنها لا تستجيب لندائها، ولا تتحرك من مكانها كأنها ملتصقة بالأرض.

ظلَّت فاطمة زوجة أخي تبسمل وتقرأ القرآن، وهي تحاول إيقاف حركة القلم في يد سهير، لكنها فشلت. ذهب إسماعيل للاتصال بالطبيب من هاتفهم، ولا أعرف ما الذي جعلني أتربع إلى جوارها وأنظر إلى ما ترسم. انقبض صدري وأنا أرى تلك المخلوقاتِ ذاتِ الرؤوس الكبيرة والأعين المشقوقة واللهب المنبعث منها، يتوسطها كائن ذو رأس أسد شيطاني الطلعة، وستة سيقان مثنية حول تلك الرأس كأنه تِرس. على الحائط باقي المشهد، وفيه رجل ذو عباءة ولحية بيضاء، يطير فوق المسوخ ويشير إليها.

سألت سهير هامسًا وأنا أعرف أنها لن تسمعني:

- سهير. هل أنتِ بخير؟

صاحت رجاء:

- هل يبدو لك أنها بخير؟! ابتعد أنتَ.

وجلست جوار سهير من الجهة الأخرى تعانقها. قال أخي في ارتباك وهو يحمل دليل الهاتف أنه لا يعرف بأي طبيب يتصل، فاقترحت زوجته أن يحضر شيخًا من أي جامع. سألتها أنا وأنا أنظر إلى عيني سهير المحدقتين:

- ماذا سيفعل الشيخ ولا نستطيع فعله؟ لنقرأ لها نحن القرآن، ولنفكر ما الذي دفعها لرسم هذا. يبدو أنها.. مصدومة؟ رأيت هذه الحالة في فيلم رعب من قبل.

كنت أبله إذ حسبت وقتها أن ما يحدث في الأفلام قد يحدث في الواقع، وأنا الآن أكثر بلاهة إذ أحسب أن ما يحدث في الأفلام لا يحدث في الواقع.

همست لسهير:

- احكي لي، ما الذي ترسمينه؟ هل تسمعينني؟

نظرت لي سهير كأنها لا تراني، ثم مالت نحوي تهمس بدورها:

- ستخاف.. كلهم يخافون.

- لن أخاف. أتعرفين السبب؟ لأنني.. لأنني أعرف ما ترسمين.

لم تكن لدي أي فكرة عما ترسمه، لكني أردتها أن تشعر أنني أفهم ما تفعل، وأنها ليست وحيدة. نظرت لي رجاء متسعة العينين وهتفت:

- أنت لا تعرف شيئًا عن هذا! كُفَّ عن إخافتها!

انفجرت سهير فجأة في البكاء، وتركت القلم ورددت: «**بابا. بابا سيتركنا..**»

مسَّدت رجاء على شعر سهير القصير وقالت لها أنه لن يفعل، ثم أخبرت إسماعيل أنها تعاني صدمة منذ توفيت أمهما. أخذت فاطمة يد سهير وصحبتها إلى الحمام لتغسل وجهها، ثم أودعتها الفراش، وظللت أنا وإسماعيل واقفين في الصالة ننظر إلى الرسم الغريب. قال إسماعيل أخيرًا:

- البنت في حاجة إلى طبيب نفسي.

وعزمت لحظتها أن أكون طبيبًا نفسيًا. تراجعت اهتماماتي في ثوان بالتمثيل والأدب، ولم أعد أرى إلا طوق النجاة لسهير الصغيرة الرقيقة متمثلًا في المعرفة. معرفة الأسباب، معرفة النتائج، معرفة العلاج..

***

عاد الحاجُ زاهر ليلتها قرب الفجر، وقد تركنا فاطمة تبيت مع الفتاتين. كانت ملابسه ممزقة، لكن بلا أثر لأي جروح في جسده. قال أنَّ سيارة صدمته، وأنَّه اضطر للمكوث في المستشفى حتى يتأكدوا أنه بخير. حكت لي رجاء في اليوم التالي وهي تنشر الغسيل في الشرفة وأنا أنظف نافذة غرفتي المطلة على الشارع، أن أباها رأى الرسم ولم يُعلِّق، وطلب منها تنظيفه. ثم تغيَّر تعبير القلق على وجهها إلى صرامة غريبة وهي تقول:

- كلمة واحدة عمَّا رأيت تصل إلى أي أحد في الشارع، وسأذبحك!

ثم أغلقت الخصاص بعنف. هذه هي رجاء، وقد عشت في ظل وجودها أربعين عامًا، ولم أعرف مَن هو أكثر حنانًا منها.

قرب سبتمبر من العام نفسه، دعانا الحاج زاهر لزفاف أخيه مدحت في نوَاج، إحدى ضواحي طنطا. تعرفت يومها على فرع آخر من العائلة الطيبة، العم مدحت وزوجته التي هي ابنة عمه. جلسنا مع الرجال في الصوان خارج المنزل الريفي المُبهج، ودخلت سهير ورجاء إلى حيث النساء في قاعة داخلية.

في لحظة ما والطاهي يضيفنا باللحم والفاصوليا البيضاء والأرز، لمحت ما يتحرك في ظلام الحقل. تركت الطعام ومشيت حتى خرجت من الزحام ومن دائرة الضوء. شيئان يتحركان لا شيء واحد. شيء أبيض، والآخر أقصر ولا أراه. شعرت ببرودة غريبة وأنا أقترب وأنادي: «**مَن هناك؟**» فيأتني صوت امرأة من بعيد: «**هذا أنا يا أسامة، خالتك مريم. امكث مكانك لا تقلق، ولا تأتِ**».

هرعت أخبر أخي الذي أخبر الحاجَّ زاهر بدوره، فتسللنا من الفرح لنرى ما الذي دفع العروس إلى الجري في الحقول هكذا. طلب منا الحاجُ زاهر أن نمكث في الفرح، ونتأكد من أن أحدًا لا يلاحظ شيئًا. بعد نصف ساعة رأيناه عائدًا يحمل سهير وخلفه مريم ملطخة الملابس بمادة سوداء. مشوا من خلف الصوان كي لا يراهم أحد، ولا أعرف ما الذي حدث بعدها، ولم يُجِب الحاجُ زاهر عن سؤالنا بعدما عاد إلى الصوان. لاحظت فقط أنَّ طرف جلبابه ملوثٌ بمادةٍ سوداءَ ذات رائحة غريبة. همست لي فاطمة التي كانت تراقب كل هذا من بعيد:

- هذه البنت ملبوسة والعياذ بالله. ابتعد عنها، هذا أفضل. ربما هو جنيٌ عاشق سيؤذيك لو ظنَّ أنَّك –لا قدر الله- تحبها. أنت تحبها يا أسامة، أليس كذلك؟!

جاء سؤالها استنكاريًا، كأنها تريد أن تقول أنها ستكون مصيبة لو أحببتَها. وجدت نفسي أفكر في إجابة سؤالها. هل أحب سهير؟ تبدو طفلة في عينيَّ، ولا

يريد قلبي أن يخون الأمانة التي ائتمنني الحاج زاهر عليها. لن أحب إحدى ابنتيه فيصير لحمايتي لهما غرض آخر.

لا.. لن أحبها. سهير طفلة.. سهير مثل أختي.. سهير..

***

بِتُّ أنا وإسماعيل والحاجُّ زاهر في غرفة في الطابق الأرضي، وباتت فاطمة في غرفة منفصلة بعدما أبَت أن تنام في المكان نفسه الذي تنام فيه سهير. بيت العَم –الذي هو بيت والد الحاجِّ زاهر- فسيح يسَع من الحبايب ألفًا، والعادة وقتها أن يبيت الحاضرون للأفراح من مكان بعيد في منزل أهل العريس.

استيقظت قبل الفجر، فلم أجد الحاجَّ زاهر. ثم سمعت صوتَ حديثٍ يدور في المجلس أمام المنزل. أطللت من النافذة لأرى الحاجَّ زاهر والعريس وعروسه جالسين أمامهم أكواب الشاي، وعلى الأرض أمامهم.. لا أعرف.. سحلية كبيرة؟ شيء يشبه التمساح.. الديناصور.. سمعت الشيخَ زاهر يقول شيئًا عن ضرورة التحصين، والعروس تخبره أن لا أحد يجرؤ على الاقتراب من هذا المكان وهي على قد الحياة، وأنه سيظل المكان الأكثر أمنًا لسهير.

إذًا سهير ليست في حاجة إلى طبيب نفسي. ما يحدث لها حقيقي وهم يعرفون له اسمًا ووصفًا وعلاجًا. هل هي ممسوسة؟ ما هذا الزاحف أمامهم وما علاقته بالأمر؟

تسللت عائدًا إلى فراشي خشية أن يراني أحد. لم أنَم حتى الصباح. التقيت بسهير ورجاء على مائدة الإفطار. سألت سهير إن كانت بخير، فأجابت رجاء نيابة عنها.

- لماذا تسأل؟ بالطبع بخير. اسمع يا أسامة، شكرًا لك على مساعدتك لنا أنت وأخيك و.. وزوجته. لكني لن أسمح لأحد بأن يشيع أن أختي مجنونة أو ممسوسة.

رأيت الدموع تحتشد في عيني سهير وهي تنظر لي، كأنها تسألني إن كنت ممن يخافون منها، فقلت وأنا أنظر إليها:

- بالطبع سهير ليست كما يقولون. تأكدي أن فاطمة لن تنطق كلمة أخرى تسيء لسهير، وأنا أيضًا لن أسمح لأحد بذلك. سأذبحه!

وابتسمتْ فابتسمتْ رجاء. طلبت منّي الجلوس وصنعت لي شطيرة فلافل وباذنجان. سألتُها عما حدث أمس، فتجهَّمت وعادت لصمتها. بعد الإفطار تسللت إلى الحقل حيث رأيت الخالة مريم تجري وراء سهير. في منتصف حقل السمسم الأخضر رقعة محترقة، تفوح برائحة نتنة مثل تلك التي فاحت من طرف جلباب الحاج زاهر ليلة أمس. سهير ليست مجنونة، لكن.. ممَ تعاني؟!

***

عام 1989، تزوجتْ رجاء المهندس حسّين، ولم تكمل تعليمها الجامعيّ، وانتقلت لتعيش في القاهرة. التحقت أنا بكلية الآداب قسم علم النفس، وهو أقرب ما استطعت لدراسة النفس البشرية واضطراباتها. رغم ما رأيت بعيني ظللت متشبثًا بأنَّ في العلم تفسيرًا منطقيًا، يخبرني أن سهير ستشفى ببعض الجلسات أو بأقراص مضادات الاكتئاب أو أي وسيلة ماديَّة. لن أستطيع معالجتها بنفسي، لكني سأفهم، وسأطمئِن. أعتقد الآن وأنا أحكي أنني كنت في حاجة لطبيب نفسي وقتها ليخبرني أنني واهِم وليس في وسعي مساعدة أحد بما يُطمئنني، بل بالتعامل مع الحقائق مهما بدت غرابتها.

يوم ظهور نتيجة تنسيق الثانوية العامة، عرفت أن سهير قُبِلت للدراسة في كلية الفنون التطبيقية. إنها رسامة عظيمة، وتلتقط صورًا بديعة بالكاميرا التي أهدتها لها زوجة عمها الخالة مريم، لكنها ظلت ترفض أن تريني (كل) الصور التي تلتقطها. المهم أنني عرفت أنها ستنتقل إلى القاهرة لخمس سنوات. خمس سنوات لن أفتح فيها نافذتي لأراها، ولن ألقي عليها السلام ولا أوصلها للمدرسة –وبيننا أمتار عديدة- قبل أن أذهب إلى الجامعة.

انتظرت إسماعيل حتى عاد من العمل، وعلى مائدة الغداء قلت له:

- إسماعيل، أريد أن أخطب.

- عظيم. لا بأس. لكن أليس الأفضل أن ننتظر حتى تتخرج؟ تقديراتك ممتازة وتنبيء بأنك ستكون معيدًا.

- سأخطب الآن وأتزوج بعد التخرج.

- لنفكر في الأمر. من العروس؟ أعتقد أنني أعرفها.

توقفت فاطمة عن (تفصيص) السمك لعصام ونظرت لزوجها ثم لي، وهتفت:

- سهير؟! المجنونة؟!

رميت الملعقة وقمت ضاربًا المنضدة بيدي:

- لن أسمح لك ولا لأيّ مخلوق أن يتهمها بهذا. مفهوم؟

- إن لم تكن مجنونة فهي ممسوسة. لا يا أسامة. البنات تملأ الدنيا. اختر غيرها.

- هذه حياتي يا فاطمة. مفهوم؟ ما رأيك يا إسماعيل؟

- هذه حياتك يا أخي كما قلت. والبنت مؤدبة ووالدها من خير الناس.

كنا قد أوصلنا هاتفًا في شقتنا، فاتصلت بسهير، وقلت لها:

- سهير.. هل تتزوجينني؟

كنت أريد أن أرى رد فعلها أمامي، لكني خشيت عليها من الخجل والتوتر. أعرف أنها تميل لي. أعرف أنها تختصني برؤية رسمها وصورها، وتُبادِلُ كتب الجيب معي. أعرف أن والدها يحبني، ويأتمنني عليها. صمتت سهير لحظات، ثم نادت على أبيها، فقلت له:

- عمي، مساء الخير. هل لي أن أخطب سهير الآن ونتزوج بعدما أتخرج؟

- لنصلِ المغرب معًا يا بني ثم نتحدث.

***

قال لي الحاجُّ زاهر ونحن جالسين في ركن المسجد بعد رحيل المصلين:

- اسمع يا بني. أنا أحبُّك. وقد رأيت طوال كل تلك السنوات معاملتك مع ابنتيّ، والأهم، شهدت كيف تتعامل مع حالة سهير الخاصة. أنت لم تُشعرها لحظة أنها.. مختلفة. لم تقتحم خصوصيتها.. لم تطالبها بتفسير. أنت من القلائل الذين قبلوا سهير كما هي.

- ليس في ابنتك ما يصعب قبوله يا عمي.

- لا تقاطعني من فضلك. لأسباب يطول شرحها، ولا أريد أن أتحدث فيها الآن، قد يصير أبناؤكما لاحقًا مختلفين. هل تقبل هذا؟ قبل أن تندفع بحبِّك لها فكِّر. قد تستيقظ في يوم لتجد ابنتك تخترق الحائط، أو تجد ابنك في مكان ليس لك قدرة على دخوله. قد تتعرض حياتكما للخطر ممن يريدون الشرَّ لأمثال ابنتي. لا أقول أنَّ هذا سيحدث قطعًا، علم الغيب عند الله وحده، لكني أحذرك. وأحذرك أيضًا من أن تتزوجها ثم تتخلى عنها. ستموت سهير لو فعلتَ هذا. ابنتي تعاني فوق ما تعانيه من الهجر العاطفي كما أخبرني الطبيب النفسي. نعم. زرنا طبيبًا نفسيًا بعد وفاة أمها. سهير تشعر أنَّها غير آمنة، وغير مرغوب فيها، وأنَّ الجميع سيتخلون عنها. انتقال رجاء إلى القاهرة آلمها كثيرًا، وبنى بينهما سدًا. هذه سنة الحياة، لكن سهير هشة يا أسامة. هل تفهمني؟

- أفهمك. ولهذا درست علم النفس. لأجلها. كي لا أؤذيَها يومًا.

- أتمنى هذا من صميم قلبي، لأنني أشعر بدنو الأجل. سأرحل أنا أيضًا قريبًا.

- هل أنت مريض يا عمي؟

- مريض بالحياة يا بني. تعبت.. المهم يا بني. ألا تريد أن تعرف مما تعاني سهير غير الهجر؟

حكى لي الحاج زاهر أن سهير ترى المخلوقات الخفية. لا تراهم بعينيها، بل بعقلها. ما أن يتواجد أيُها في المكان، حتى تراه سهير ويستطيع التواصل مع أفكارها، فتنفصل عن الواقع لدقائق وربما لساعات. عرف الحاجُ زاهر هذا من رسومات سهير التي حاولت التلميح عن طريقها. يهددها من تراهم بقتل أبيها لو تكلمت عنهم، لذا ظلت ترسم سنواتٍ، وظلَّ هو يخفي عنها أن ما تراه وترسمه حقيقيٌ.

- أحيانًا يا بني يكون تجاهلُ الخطر هو الحلُّ الوحيد. لقد قلَّ عدد المرات التي تنفصل فيها سهير عن الواقع. بدأت تُشفى ربما لأنني اتفقت مع رجاء وعمها وزوجته على ألا نؤكد لها أن ما تراه حقيقي.

- وكيف عرفت أن ما تراه حقيقي يا عمي؟

- عرفت.. لا داعيَ للتفاصيل. مريم ابنة عمي مثلها، لكنها أقوى من سهير بكثير. لو رأت مريم جنيًا أو شيطانًا تطارده حتى تفتك به إن كان متجسدًا. هذا ما حدث يوم زفافها. تجسد أحد الشياطين لسهير على هيئة أمها، وأغواها بالذهاب معه. خرجت سهير دون تفكير، ولولا رأت مريم الشيطان لضاعت البنت منا. ما أن رأى الشيطان مريم حتى حوَّل نفسه إلى وَرَل، وحاول مهاجمتها ومهاجمة سهير، بيد أن مريم غرست شوكة نخيل في ظهره، وذبحته. هذه لمحة من حياتك القادمة يا أسامة لو تزوجتها. لا تقلق، لو رغبت في التراجع فهذا حقك، وسأخبر سهير أنني رفضتك لسبب أو لآخر. فكر، واتصل بي وقتما تصل إلى قرار. في أثناء هذا الوقت أرجو ألا تقابل سهير أو تتحدث إليها.

هكذا، ورغمًا عن فاطمة التي أتفهم تمامًا مخاوفها، ذهبت وأخي لمقابلة الحاجِّ زاهر وطلبِ يدِ ابنته. أنا مستعد لفعل أي شيء لأجلها. مستعد أنْ أخوض حياة غير عادية وأجعلها عادية آمنة لأجل عينيها. إن كانت الشياطين تتملَّكها، فالحب ملاك قادر على جعل جسدها وعقلها آمنين.

وخُطِبنا. صرت أذهب لرؤيتها أسبوعيًا في جامعتها، وأصحبها في طريق العودة يوم الخميس عصرًا إلى طنطا. ثم مات الحاجُّ زاهر. وجدوه ميتًا في المسجد بعد صلاة فجر يوم الجمعة. حضرنا جنازته أنا وأخي الذي اكتشفنا مؤخرًا أن السرطان قد استشرى في جسده، وأنه على الأرجح لن يرى العام القادم.

لهذا السبب أصرَّ إسماعيل على زواجي قبل أن تتخرج سهير، فتزوجنا في البداية في بيت الحاجِّ زاهر وعشنا عامًا تقريبًا حتى توفي إسماعيل، وعادت زوجته إلى دسوق لتعيش قرب أهلها، بعدما أبدت خوفًا مفرطًا من سهير، ومن تعلق ابنها عصام بي والذي قد يؤدي في يوم ما إلى زواجه من ابنتي –ابنة سهير- التي كانت في علم الغيب وقتها.

وبدأت حياة جديدة، وطريق جديد. اتفقنا ضمنيًا أنا وسهير أنَّها مختلفة، لكنها لن تترك هذا الاختلاف يدمر حياتنا. الأشباح تظهر في الصور التي تصورها، ما المشكلة؟ لا شيء. دعي الناس يا سهير يتصوروا أنَّك نصابة، أو فنانة مخبولة. اعرضي الصور في معرض، افتتحي ستوديو تصوير، ارسمي، اكتبي كتابًا عن الأشباح التي صوَّرتها وعن هوسِك بالموالد وحضور حفلات الزار وجلسات تحضير الأرواح تصويرها. في كل مرة كانت سهير تمارس تلك الهوايات الغريبة، كنت

أراها تواجه مخاوفها بقوة. تعترف بها ولا تفرّ منها ولا تسمح لها أيضًا بتدمير حياتنا.

رزقنا برانيا في بداية زواجنا، وكنت أراها تحدث في المرآة ما لا نراه، وتخبرنا بتفاصيل لا نعرفها، وتصادق فتيات مُتن قبل مولدها بعشرات السنوات. لا بأس يا رانيا. يحدث هذا لبعض الناس، لكن لا تخبري أحدًا، اتفقنا؟ هذا سرنا الصغير، كما لماما سرٌّ صغير. ثم وُلِد شريف، وقيل أنه طفل ذو بركة.. وأنه.. زوهري. حاول أحدهم خطفه وهو صغير، وحاول شيطان خطفه وهو كبير. هذه أشياء تحدث، لكن لم يعد هذا سرنا الصغير..

***

المكان: طريق السفر- كُشك الحلوى

الزمان: 2024

حكى أسامة لزكية أنه عندما تيقن أن حياته وأسرته استقرّت، وأنه وصل إلى نهاية الطريق الشاق، وجد تفريعةً أخرى مظلمةً لم تكن على باله. آدم لاشين، وبرنامجَ بعد منتصف الليل، وطريقًا جديدًا يطالبه بأن يبدأ من البداية، وأن يغير حياته لتتوائمَ مع تفجُّر مواهبي، ومع الخطر الداهم الذي أودى بحياة حفيده، وكاد يقتل ابنه.

أعرف هذه التفريعة جيدًا يا أسامة. تلك التي هرب منها أبي وزيَّف موته كي لا يخوض فيها فيفتن الناس بقدراته. لكن العصر غير العصر، وأنا لست أبي، ولن يظنني النَّاس نبيَّة أو وليَّة. أعرف أنَّني ورثت قدرتي من أبي، وأعرف أنَّني أورثتها لأبنائي. أعرف أنَّ في عائلتنا جذورًا حظيت بالزوهريَّة الكاملة مثل شريف ابني، وفروعًا أخذت الزوهريَّة مقتطفات، مثلي ومثل رانيا ابنتي والحاجَّة مريم. لقد تغيَّر العالم. ربما لاشين هو النعمة والنقمة. هو الاختبار. هو مفترق الطريق ولحظة الاختيار، هل نكمل أم نعود أم نتوقف مكاننا. يقول أسامة:

- وعندما اخترت أن أكمل التفريعة الجديدة، وأستعيد زوجتي، وجدت نفسي أمام اختبار قاس. هل سأسالك الطريق كما هو، أم سأحسب أنني أغيِّره وأنا أقطع طريقي القديم ذاته عودةً، بينما سهير تبتعد أكثر وأكثر في الاتجاه المعاكس وحدها.

تقول زكية:

- أنت أيضًا مثلنا، شخص عادي تطاردك العفاريت والشياطين. لكن هذه المرة أنت من اخترت هذا الطريق لأنك تحبها، ولم تتورط في الرعب كما تورطنا نحن فيه. هل جئتما إلى هنا هربًا من هذه العفاريت؟

أجيب أنا:

- بل مواجهةً لها. إلا أنها عفاريت مختلفة يا زكية. لقد واجهنا الشياطينَ والجنَّ والسحرة، وعجزنا عن مواجهة نفسينا. هربنا كثيرًا من سهير وأسامة الحقيقيين. عشت عمري أحاول أن أقنع نفسي أن ما أنا فيه أنا وأبنائي أمر عادي ولا يشكل أي خطر. ضحى أسامة بحياته واستقرارها وأحلامه بالتمثيل ليبني حولنا سورًا يمنعنا من مواجهة العفاريت الحقيقية بالخارج. لم نكن نهرب يا زكية من عفريت هذه المرة، بل كنا نلقي بنفسينا إلى طريق جديد مجهول، يختبر حقيقتنا وحقيقة الحب الذي علقّنا عليه أملنا.

يقول أسامة وهو يتحسس صدره وكتفه متألمًا:

- لا مزيد من الفرار يا سهير. لقد تمزق الستار بين العالم المادي وغير المادي، ولا جدوى من الإنكار. نحن هنا في مكان لا يعلم حقيقته إلا الله، ولا ينفع معه إلا ما تعرفين أنت يا سهير، لا ما أعرفه أنا. أي زوجين جاءا من عالمين منفصلين، يتقاطع عالماهما بالزواج في مساحة تكبر أو تصغر، وهي المساحة المشتركة بينهما. التفهُّم يوسّع هذه المساحة، لكن مهما اتسعت، سيظل الزوجان من عالمين مختلفين. ثراء الزواج نفسه واستمراره يكمن في احترام كل طرف لعالم الآخر، وعدم محاولة امتصاص أحد العالمين الآخر.. أنا آسف يا سهير.

- وأنا آسفة يا أسامة. وأعتقد أن أبي أيضًا آسف. لقد حمّلك ما لا تستطيع، وأجبرك على انتهاج نهجه معي، ولم يترك لك حرية اختيار ما تراه مناسبًا. عالمي امتصّ عالمك يا أسامة. أعتذر لك.. و.. أحبك. أحبك لأنّك أنتَ، لا لأنّك بديل أبي، ولا لأني لا أتحمّل الوحدة أو أعاني هجرًا عاطفيًا. أنت لم تهجرني.. أنت فقط تعِبت من مشقة طريق لا ينتهي.

دمعت عينا زكية، ثم ضحكت ارتباكًا وقالت:

- لم أتصور أن يكون في هذا العالم مكان للحب والغرام. ألستما جائعين؟ في الصباح سأصطاد لكما سمكًا.

تذكرت الجوع، فأخرجت من حقيبتي ثلاثَ قطع شكولاتة أعطيت لكل منهما واحدة وأخذت الأخيرة. كم أشتاق إلى الاختباء في صدر أسامة الآن. قال أسامة وهو يقشر الشوكولاتة:

- في الصباح سنخرج من هنا. إن شاء الله سنخرج من هنا.

***

الفصل الخامس

المكان: طريق السفر

الزمان: 2024

بثنا في الكشك في أمان، واستيقظنا مع أول شعاع شمس. خرج أسامة لينظر إلى السماء، ثم إلى المكان حولنا.

- أريد مكانًا عاليًا يكشف أكبر مساحة.

قالت زكية وهي تضرب السمك على رأسه بحجر كي يكف عن التشنُج:

- هذا العالم مسطح تمامًا. بلا جبل ولا مبنى عالٍ. لا شيء هنا بارتفاع أكثر من طابق واحد على حد علمنا. استكشف شوكت ومرعي المكان لأشهر بعد وصولنا، لكن لم يغرهما شيء بالاستمرار. ليس هنا إلا حقول، وبعض المباني المتناثرة، وشريط سكة حديد..

أقاطعها:

- سكة حديد؟! هل يعبر قطار من هنا؟!

- لا. مجرد قضبان. تبِعاها ولم يصلا إلى نهاية. المكان هنا واسع للغاية، وبلا وسيلة مواصلات واحدة سوى خيول الخيَّالة الذين لا نعرف مكانهم ولا أين يبيتون.

يسألها أسامة:

- كم شخصًا قابلتم هنا، وكم شخصًا سمعتم عنه ولم تقابلوه؟

- قابلنا ثمانية غير عبد السميع؛ الخيالة الثلاثة، الراعي، المرأة الأنيقة وتلك ماتت على يد الخيالة على الفور. طفلين وسائقَ حافلة توصيل مدارس، ورجلًا عند مفترق الطرق يبحث عن.. أعتقد أنه أخبر مرعي أنه يبحث عن شيطان عند مفترق الطرق، عقد معه اتفاقًا منذ ستٍّ سنوات ويريد أن يجده هنا لعله ينقذه، لأنه لا يمكن أن يموت قبل انقضاء العشر أعوام التي وعده بها الشيطان. أتذكر هذه القصة جيدًا.

- وأين هؤلاء؟

- لا نرى إلا الراعي بين الوقت والآخر. ويمكن أن تجد الرجل الذي يبحث عن الشيطان، لكنه بعيد عن هنا. تقولان أنكما قابلتما الجندي عند التبَّة. سمعنا عنه

من المرأة الأنيقة وسائق الحافلة. قال الراعي أنه يعرف بوجود مقام الست جمالات ومريديها. رأينا أيضًا أثر وجود شخص أو أشخاص يكتبون عدد الأيام التي مر منذ وصلوا على السور. لم نقابلهم قَطُّ لأنَّ السور أيضًا بعيد. أما عن السيارات المعطلة هنا فحدِّث ولا حرج. يعشق الخيَّالة اصطيادها فور وصولها.

جلس أسامة على الأرض، وبعصا طويل رسم الطريق كما نذكره منذ وصلنا حتى الكُشك، وكتب المعالم التي رأيناها وتلك التي وصفتها زكية، ثم قال:

- نفهم من هذا أنه لا طريق سوى الذي أمامنا الآن، والسكَّة الحديدية المهجورة. عندما جئتم يا مدام زكية لم تمرا بالدشمة ولا المقام، أليس كذلك؟

- بلى. أعتقد أننا وصلنا هنا من الجهة الأخرى. أنت لم تَر الجسر الطويل. لا بُد أنه في مكان ما بعد السكَّة الحديد، ولم يذهب مرعي وشوكت إلى هناك.

ينظر لي أسامة ويسألني عن رأيي. ما هي التفسيرات الماورائية لهذا الموقف، فأجيب بعد تفكير:

- التفسير الأول، أن هذه مدينة مُسيَّجة مسحورة، مثل تلك التي رآها مهاب ولاشين في الإمارات وحبس فيها مِهر الضحَّاك(8). لكن المفترض أنَّ هذه المُدنَ ليست موجودة إلا في المناطق المعزولة، مثل الصحاري. لا يمكن لمدينة مسحورة أن تظهر للناس وسط شارع البحر مثلًا. لا نعرف الكثير عن هذه الأسطورة، لكن.. لنعتبر أن هذا تفسير مبدئي.

- وكيف يخرج الناس من المدن المسحورة؟

- لا أعرف. يقال في الأساطير أن مَن يُحبَس في مدينة مسحورة يخرج منها بعد ليلة. الجميع هنا منذ سنوات ولم يخرج أحد.

تقول زكية وهي تغسل يديها من جرَّة ملأتها من الترعة:

- بل يخرج الناس من هنا. لاحظ يونس أن عبد السميع يأتي بركَّاب كل بضع ليال، ويعود بهم أغلب الوقت.

أتبادل وأسامة النظرات. عبد السميع يأتي كل بضع ليال بركاب جدد، بينما لا يظهر إلا كل عام على طريق طنطا الإسكندرية الزراعي. بل إن على الطريق أشخاصًا لم يأتوا معه، بل أتوا بسياراتهم. سألت زكية عن ذلك، فأجابت أن المرأة الأنيقة أتت بسيارتها، لكنها سألت عبد السميع عن إرشادات للطريق، فطلب منها أن تتبعه. تبتعه فوجدت نفسها هنا. يقول أسامة:

- عبد السميع هذا ليس جنيًا ولا شبحًا ولا شيطانًا على حد قول لاشين، وعمره لا يجاوز السبعين. حسب ما كُتِب على السور، المكان هنا منذ أكثر من نصف قرن. هل في المكان ما يشير إلى أنه موجود من قبل ذلك؟

فكَّرت زكية لحظات، ثم قالت أنها لا تعرف. أكمِل أنا إجابة سؤال أسامة عن التفسيرات:

- التفسير الثاني أننا في عالم موازٍ وعبد السميع وجد طريقة ما للعبور إليه والخروج منه. لكن العوالم والأبعاد الموازية لا تتصرف بهذه الطريقة، إن هي إلا عالمٌ كامل مثل عالمنا، بسكانه وأحداثه وتاريخه. هذا عالم خالٍ إلا ممن جلبهم عبد السميع إليه. مكان فيه ما يحتاج إليه كل مسافر ضلّ الطريق. هذا ليس بُعدًا موازيًا. هذا منفى يختار ضحاياه.. يقودني هذا إلى التفسير الثالث. وادي هنوم، أو جيهنُّم بالعبرية؛ المكان المذكور في التوراة أنه قرب أورشليم، وكان يقدَّم فيه القرابين للشياطين الكنعانية بعل ومولوخ. يعتقد بعض اليهود أن هذا هو المكان الذي تذهب إليه أرواح الخاطئين لتتطهر من خطاياها قبل أن يُسمَح لها بدخول الجنّة. بالطبع ينظرون إليه على أنه مكان غير مادي، بُعد آخر، يستمر فيه التطهير اثني عشر شهرًا عدا أيام السبت، الذي تُطلَق فيه الأرواح لتجوب الأرض، ثم يُقادون بعده للحبس ستة أيام أخرى من العذاب.

تسألني زكية:

- ثم بعد عام؟ ماذا سيحدث؟

- تذهب الأرواح إلى العالم الآخر، أو «أولام هابا»، حيث لا يعرف أحد شيئًا عن تفاصيل ما يجري فيه. ذكِر مكان مشابه في سفر المقابيان الإثيوبي، وعند الكاثوليك باسم «المَطهر»، وقيل أن الأعراف في القرآن هو المكان الذي يمكث فيه من تساوت سيئاتهم وحسناتهم، بين الجنة والنار، حتى يقضي الله فيهم. ما يخيفني هو.. أن كل هذه المعتقدات تقول بأن الإنسان لا يعبر إلى هذه الأماكن إلا.. إلا بعد وفاته.

تحدق إليّ أربعة أعين فَزِعة، فأضيف وأنا أرفع إصبعي:

- لكن.. ممن مروا بتجارب الدنو من الموت، من حكوا أنهم دخلوا مكان هذا وأمضوا فيه أيامًا، ثم عادوا إلى الحياة. تلك الأيام لم تمضِ إلا في عقولهم، بينما هي في الحقيقة ثوانٍ أو دقائق توقفت فيها قلوبهم وكادوا يموتون.

يمسح أسامة على وجهه ثم يقول:

- تريدين أن تقولي أنّنا، أنا وأنتِ، وكل الموجودين هنا، نعيش تجارب دنو من الموت؟ ذهبنا إلى هذا المكان البين بين، بينما أجسادنا ممدة على الأسرّة وبين حطام السيارات؟

- لا أعرف يا أسامة. أنا أفكر في كل الاحتمالات.

تقول زكية ممتقعة الوجه:

- و.. ومرعي ويونس ومن قبلهم شوكت، هلكوا بذنوبهم ولن يعودوا؟ أما من يعود مع عبد السميع فهم مَن أنقذوهم في الواقع الحقيقي؟

- ربما يا زكية.. ربما.

يغمغم أسامة وهو يقوم ويحمل السمك عن زكية:

- ما دور عبد السميع في مسألة البرزخ أو المطهر أو أيًا كان؟ هل يقوم بدور شارون الذي يعبر نهر ستيكس بالموتى ويوصلهم إلى مملكة الموت هيدس؟

تنظر لي زكية وتسألني عن علاقة شارون رئيس وزراء الكيان الصهيوني بما يحدث، فأفسر لها أن شارون شخصية من الأساطير اليونانية، يعبر بالموتى نهرًا سحريًا إلى مملكة الموت. على العموم لا توجد اختلافات كثيرة بين هذا وذاك. لا أعرف حقًا علاقة عبد السميع بهذا. يقول أسامة أخيرًا ونحن نسير عائدين إلى الغُرزة لجلب المنقَد والحطب وملابسَ نظيفة:

- ماذا لو.. ماذا لو أنَّ كلَّ هذا حلم؟

- ومتى بدأ هذا الحلم بالتحديد؟ منذ اقترح عليك مهاب أن تصحبني إلى هذا التحقيق؟ أم منذ استيقظنا صباح اليوم؟ في الأحلام يا أسامة لا تستطيع تذكر ما قبل أحداث الحلم ولا تتساءل كيف جئت إلى هنا، وإن تساءلت سيتهاوى الحلم وتستيقظ. هل نحن في غيبوبة؟ لا توجد غيبوبات مشتركة، فغيبوبة مَن هذه؟ أنا؟

نسير صامتين حتى نصل إلى الغرزة، وتدخل زكية لتجلب ما نحتاج. خطة أسامة أن نستمر في السير عودة إلى حيث الدُشمة وما قبلها لنرى أين يبدأ هذا العالم من هذه الجهة. لماذا لا نتجه إلى الجهة الأخرى حيث دخلت زكية ومن كانوا معها؟ نحن نعرف كامل، وربما نستفسر منه أكثر عن هذا العالم فهو أقدم مَن نعرف هنا. المسافة طويلة، ولا أظننا قادرين على قطعها قبل الغروب. يقول أسامة:

- في الطريق أماكن صالحة للاختباء. سنبيت في أقربها ونكمل الطريق صباحًا. لا أعرف إن كان الغولان المتبقيان سيتعقباننا، لكن أعتقد أننا لو اختبئنا قبل الليل، لن يعرفا بوجودنا. أليس كذلك؟

تغني زكية وهي تقلّب جثة يونس بحثًا عن شيء ما: «**أمنا الغولة طقطقي الفولة، بتعملي إيه..**»

زكية سيدة طيبة، لكنها بالتأكيد غير متزنة، مع كل هذا الخمر الذي عاشت عليه لسنوات. تعود إلينا حاملة بضعة سكاكين يدوية الصنع من الحجر، وتعطي لكل واحد اثنين (علشان السُكة) ثم تجلس على قارعة الطريق تحاول إشعال النار في الحطب باستخدام قدَّاحة وخمر العراقي. قالت زكية:

- هذه قدّاحة يونس. كنا نشعل النار باحتكاك الخشب أو طرق الأحجار، ونتركها مشتعلة كي لا نضطر لإعادة إشعالها كل يوم. ثم جاء يونس، وجاءت معه هذه النعمة. نحن لا نطفئ النار أبدًا إلا في أوقات معدودة، أو كما حدث أمس. سأطهو السمك سريعًا، ثم نبدأ الطريق. في هذه اللفافة لحم مجفف وخبز وعراقي. أعرف أنكما لا تشربان، لكني سأشرب. لن أتحمّل..

يرتدي أسامة قميصًا فوق فانلته الداخلية التي اتسخت، ثم ننطلق في طريقنا بعدما انتهت زكية من شيّ السمك. يحمل أسامة كل شيء عنها إلا الخمر. نسير حتى تُعيينا حرارة الشمس. نلاحظ المعالم جيدًا ونسجل في عقلنا ما يمكننا الاختباء فيه إن احتجنا لهذا. نجد دراجة طفل عتيقة عند الطريق، منظرها يؤلم قلبي ويجعلني أتساءل، لماذا قد يأتي طفل بريء إلى هنا؟ يثبت إليها أسامة حمولتنا، ويجرّها خلفنا. هذا أفضل من الحَمل.

يتعب أسامة، وأعرف هذا من احتقان وجهه وكفه على صدره. أقترح أن نجلس قليلًا تحت شجرة توت وارفة، نأكل ونرتاح قليلًا، ثم نُكمِل المسير.

بينما نفعل ذلك، ألاحظ نقوشًا على جذع الشجرة. أسماء وقلوب ورسوم لأشخاص بشكل بدائي. هذه عادة المصريين؛ النقش على أي شيء. أتخيل سناء ومحمود هنا، معزولين، حتى يقررا في لحظة أن حبهما سيدوم هنا للأبد وأن عليهما أن ينقشا اسمها مع عشرات الأسماء الأخرى المنفردة أو في مجموعة. هل هذا منفى أم بداية جديدة؟ هجرة إجباريَّة تضع الإنسان منا أمام نفسه وماضيه ولا شيء سواهما. الطريق الممتد –أو الذي نتخيل أنه ممتد- أمامنا طول الوقت يغرينا بالاستمرار دون توقف لحظة، ودون تفكير فيما فعلنا أو سنفعل. ربما لهذا يذكرنا الله بالموت، بنهاية طريق السفر الحتمية، حتى لا يغرينا دوام السفر والأمل فيه.

أرى أسامة يحدق إلى الشجرة هو الآخر، ثم يطلب منا أن نكمل الطريق. من شكل الشمس أستنتج أننا في وقت ما من بعد الظهيرة. أمامنا وقت.

***

نصل إلى الدشمة قبل المغرب. أتمنى صدقًا لو نُعفى من مقابلة الجوليم اللعين. لا طاقة لنا.

زكية متوترة، مرتعبة. لم نلاحظ كم الجثث والهياكل العظمية على الطريق إلا عندما مشينا عليه. تفاصيل كثيرة غابت عنا لحسن حظنا وقتنا، ولسوئه الآن. وجدنا منزلًا بسيطًا فيه ثلاث جثث، طفلين وبالغ، نائمين متجاورين في سلام. وجدنا هاتفًا محمولًا محترقًا، وعبوات مياه غازية من الثمانينات. المكان مرعب في حد ذاته، ولا ينقصه تلك المخلوقات التي ترتع فيه.

أهم ما وجدنا رسالة في زجاجة مياه معدنية قديمة، والرسالة طافية فوق مياه الترعة. قالت زكية أن العديد من الأشياء تطفو هناك، لكنها تعلَّمت ألا تدقق النظر؛ بقايا الجثث ليست من الأمور التي تنقص حياتها، لكنها رأت تلك الزجاجة مرارًا، تبحر في اتجاه سريان ماء الترعة، ودائمًا ما تبحر في الاتجاه ذاته. قال أسامة:

- إذًا هذا العالم كُرة أو دائرة، تحيط به هذه الترعة. هذا يعني أننا.. أننا لن نجد مخرجًا له ولا مدخلًا..

نزل أسامة إلى حافة الترعة، واصطاد الزجاجة. فتحنا الورقة بداخلها، وهي من أجندة تحمل تقويم عام 1999، ومعها قلم بِك أزرق. في الورقة عبارات متتالية بخطوط مختلفة، لكنها تتكرر. نحن نرى الآن محادثة بدائية جرت على مدار سنوات..

مَن يجد الزجاجة يكتب مكانه. مارس 1999

أنا عند السور، وأحدهم دوّن عليه تقويم يرجع إلى قرابة خمسين عامًا.

المحطة. لي أعوام هنا. منذ 1980

لا زلت عند السور بعد 35 يومًا.

من أنت؟ أنا رضوى. الأتوبيس السياحي.

أين نحن؟ في أي عام؟

لا زلت عن السور. عام 2003

عند السلم الخشبي. من أنت؟ جئت أول أمس.

نتقابل عند السور؟! أين هو؟

السور في الغرب.

لم أجد أحدًا عند الأوتوبيس. أنا كنت عند السلم.

أين في الغرب؟!

أين نحن؟! أين السائق!

احذروا، غيلان تأتي ليلًا!

***

نظرنا إلى بعضنا البعض. هذا المكان لغز حقيقيٌّ. لقد حاول أحدُهم تدوينَ التَّاريخ، ثم اختفى، وجاء أحد من بعده عام 1999 وبدأ خطَّة في التَّواصل مع الآخرين. خطة ذكيَّة، لولا اتساع المكان، وصعوبة العثور على الزجاجة في كل دورة، ناهيك بملاحظتها من الأساس. كتب أسامة في الورقة قبل أن يضعها في الزجاجة ويرميها مرة أخرى:

أسامة وسهير جئنا عام 2024. لنا يوم هنا. معنا سيدة أخرى منذ عام 2004. سنجد طريقة للخروج بإذن الله. هذا عالم سحري دائريٌ بلا نقطة بداية أو نهاية. عبد السميع هو مَن جلبنا جميعًا إلى هنا. الأشياء المخيفة هنا لا تهاجم إلا مساء. الغيلان هم الخيّالة. سنراقب الترعة لو مكثنا أكثر. ربما نصنع طوفًا. لا وسيلة للانتقال هنا إلا المكيروباص وخيل الغيلان.

ورسم خريطةً ما عرفناه من المكان على ظهر الورقة.

بعدها ابتعد الطريقُ عن الترعة، حتى وصلنا إلى الدُشمة. نطرق بابها المغلق حتى يخرج علينا كامل يسأل مَن نكون، ثم يتذكرنا.

- أما زلتما هنا؟

- بلى. وسنظل هنا ما لم نساعد بعضنا. ليلة أمس لم نجد فرصة للحديث أكثر. ألم يمر عليك سوانا طوال فترة وجودك هنا؟ ألم ترَ الميكروباص يعبر من هنا ذهابًا أو إيابًا؟

أجاب كامل أن عدة زوّار زاروه خلال الفترة السابقة، لكنهم فروا جميعًا من مواجهة الجوليم، وسرعان ما فتكت بهم العصابة. إذًا العصابة هنا من قبل كامل.

- لا يهاجمون المتحصنين في أماكن مغلقة. لا يفضلون إلا مَن هم على الطريق. بالنسبة لعبد السميع. أنا لا أستيقظ إلا ليلًا، والمرات التي أرى فيها أضواء سيارته تكون ليلًا، وعلى جانب الطريق هذا. لم أره يعود من قبل.

أعطته زكيّة بعض اللحم المجفف، ومدت يدها له بالخمر، فأبعده أسامة عنه ونظر لها محذرًا في صمت. نستنتج مما قال كاملُ أنَّ السائق لا يعود ليلًا، ومما حكاه ساكنو الغُرزة، نعرف أنه يعود على الطريق ذاته. أضافت زكية أنه يعود نهارًا، لكن لماذا لم نلقهُ اليوم؟ يجيب أسامة:

- لا تنسي يا سهير أننا أمضينا النهار نستكشف المكان، وابتعدنا أحيانًا عن الطريق. ربما عاد ولم نره، لكنه سيأتي الليلة. لم أعد أؤمن أنّه يأتي مرة كل عام فقط. كل الحكايات التي سمعناها تشير إلى أنّه يجمع الرُكاب من طرق مختلفة ليلًا، لا من طريق واحد.

يطلب أسامة من كامل أن نمكث أنا وزكيّة داخل الدُشمة، وسيراقب هو الطريق مع كامل كي يقتنصا السائق وقت قدومه.

أمكث أنا وزكية في الدُشمة شبه المظلمة، أحكي لها حكاية كامل وما قابلناه من وحوشه. تقول لي وهي متربعة إلى جواري:

- هل كل من جاءوا هنا جاءوا هربًا من أشياء مرعبة؟ لماذا؟ ألم يضِل أحد لسبب آخر؟

- لا أعرف يا زكية. نحن لم نلقَ سواكم وكامل، وأنتم لم تلقوا سوى القليل ولم تعرفوا عن حكاياتهم شيئًا. ما يشغل بالي، لماذا لم يجتهد أحد في استكشاف

هذا العالم؟! المسافات ليست بهذا الطول، ويمكن تقسيمها. بضع وخمسون عامًا على الأقل كانت كفيلة للعثور مخرج أو على الأقل كافية لإنشاء مجتمع صغير.

تنهَّدت زكية وهي تنظر إلى الخمر في متاعها وتقول:

- اليأس يا مدام سهير. استكشف شوكت ومرعي بعض الوقت، لكن ما وجوده لم يكن كافيًا للوقوف أمام اليأس من النَّجاة، والخوف من المجهول، والركون إلى أمان الحياة الرتيبة. صاحب الزجاجة يحاول من فترة طويلة كما يبدو، ولا نعرف إلامَ وصل. لم نزر السور منذ سنوات. ربما في هذا العالم مجموعة ناجين ولا نعرف عنهم شيئًا.

أفكر فيما قالت. لليأس تأثير مميت. هؤلاء استسلموا للنفي والعقاب. ربما يأسوا قبل كل شيء من رحمة الله. حتى الجني، استمر في عقاب أبدي ولم يفكر لحظة في أنه لم يعد مرتبطًا بالطلسم من الأساس. أسألها في محاولة للتخفيف:

- عندما نعود بإذن الله، أعتقد أنَّك ستعودين إلى الزمن والمكان نفسه الذي ركبتِ فيه الميكروباص، وسنعود نحن أيضًا إلى الطريق الزراعي والبنزينة. ماذا ستفعلين عندما تعودين؟

تنظر لي عاقدة حاجبيها كأنها فوجئت بالسؤال. تفكر كثيرًا في حيرة ثم تقول أخيرًا:

- ماذا سأفعل؟ أتصدقين أنني لم أفكر لحظة طوال حياتي فيما بعد الهرب؟ هربت من قسوة أبي إلى قسوة المعلم شعبان، وهربت من شعبان إلى شوكت، ثم إلى هنا فرارًا من العفاريت. لم أستقِر حقًا سوى هنا. لا أعرف يا مدام سهير ماذا سأفعل لو هربت من هنا. أنا التي ليس لها أحد ولا تملك أي مهارة. ألا يمكن أن أعود معكما إلى عصركما؟

أصمت لأنني لا أريد أن أذكرها بأن من يعود من هنا، يعود في اللحظة ذاتها التي ركب فيها الميكروباص. هذا هو القانون كما يبدو. لكن مَن يعود ومتى؟ مَن يقرر؟

***

أعتقد أنَّ الليل انتصف. أسمع صوت سيارة.. بل اثنتين.

نطل أنا وزكيَّة برأسينا لنرى الميكروباص الأبيض المنير، ومن خلفه جرَّار زراعيٌّ. أحمل بندقية وأشير لزكية كي تحذو حذوي. لا نعرف كيف تعمل تلك الأشياء، لكنها عصي جيدة.

لا نرى أسامة ولا كامل. أين ذهبا؟ بعد لحظات، وقبل أن يصل الميكروباص إلى المنطقة أمام الدُشمة، تنفجر قنبلة يدوية، فتحيد العربة عن الطريق

لتتفادى الانفجار، وتنزل التبّة الصغيرة إلى الحقل، ثم تتوقف مائلة وسط البوص. يسقط قلبي في قدميّ، ولا تعود لي الحياة إلا عندما ألمح أسامة يخرج من بين البوص على الجهة المقابلة من الطريق، ومعه كامل يحمل سلاحه. أكاد أخرج إليهما، لكن زكية تمسك ذراعي وتستبقيني معها هامسة: «**هذا شُغل رجال، لا دخل لنا به**». على ذلك، أخرج لكني أقترب فقط من المشهد وأختبئ خلف شجرة. أرى عبد السميع يخرج من السيارة، وصوت الراديو يشدو: «**سافر حبيبي وجاي لي يودعني، بكى وبل المحارم وأنا قلت إيه يعني. والله فراق الحبايب مُر يوجعني..**»

يساعده أسامة على القيام، بينما يُشهر كامل البندقيّة في وجهه. خلف كل هذا يترجّل سائق الجرار حائرًا يسأل عن هذا المكان.

- أليست هذه أرض المهندس منصور فرج الله؟! ما الذي انفجر؟ لا حول ولا قوة إلا بالله.

يقول أسامة وهو يحدق إلى وجه عبد السميع:

- هل أنت بخير؟ لا تؤاخذنا. أعرف أنّك لم تكن لتقف لنا، وما كنا لنغامر بيوم آخر هنا. كلما مكثنا أكثر اعتدنا المكان رغم ما فيه.

ينظر إليه عبد السميع، ثم إلى سائق الجرار ويقول للأخير:

- عُد إلى الجرار. هذا ليس المكان الذي ستنزل فيه.

يهلع سائق الجرار عندما يلمح البندقية مع كامل، لكن الأخير يُطمئنه، ويخبره أنه ليس المقصود، ثم يقول لعبد السميع:

- هل ما يقول هذا الأفندي صحيح؟ أنت جئت بي إلى هنا وجئت بغيري كي تحبسنا؟ كي تضيع عمرنا في لا شيء؟ أنا الذي.. الذي.. كيف تصورت أن ما يجري حقيقي وأن الطبيعي أن أمضي حياتي وشيخوختي وحيدًا في مواجهة العدو؟ ماذا فعلت بنا؟

يجيب عبد السميع:

- ما كنت لتدرك هذا يا كامل لولا تدخل هذا الرجل وزوجته. ما كان لي أن أجلبهما إلى هنا وهما يعرفان.

يسأل أسامة:

- ماذا نعرف؟ اجلس هنا، وفسر كل شيء.

- ساعداني لأعيد السيارة إلى الطريق، وسأعيدك أنت وزوجتك اليوم.

- إما أن تعيد مَن في هذا المكان جميعًا، أو.. أو..

ارتجَّ على أسامة وهو يرى ابتسامة عبد السميع الواثقة. لن نخرج من هنا لو قتلناه. على الأقل ليس قبل أن نفهم ما هذا المكان وما علاقته به وعلى أي أساس ينتقي الركاب. يقول كامل:

- إما أن تعيدنا، أو نفجر سيارتك ونربطك هنا معنا. ما قولك؟ هه؟ تكلَّم! الرجل لا يطلب منك المستحيل!

يسأل سائق الجرار:

- أليست هذه أرض منصور الـ..

يقاطعه أسامة:

- نعم. وليست أرضًا في عالمنا. هذا الرجل اختطفك كما اختطفنا. فأرجوك اجلس ودعنا نفهم جميعًا.

يجرب سائق الجرار هاتفه المحمول، ويسب ويلعن ويبرطم. حقه. لا بد أن يفعل كما يفعل أي وافد جديد. لكن الآن وقت الفهم. يدفع كامل عبد السميع في صدره بطرف البندقية، فيسقط جالسًا على الأرض. يجلس أسامة أمامه متعبًا متربًا جائعًا. ما الذي فعلتِ يا سهير بأسامة؟ ليتك ما خرجت من بيتك أصلًا.

يقول عبد السميع:

- لست خائفًا من هذا السلاح يا كامل. لقد واجهت الأقوى منه، وكنت أتمنى لو أجهزت بنفسي على العدو. هذه كانت وصية مرتضى، الصول الذي أحببناه جميعًا. حرب الاستنزاف استنزفتنا، لكنها عجزت عن استنزاف قطرة واحدة من كرامتنا وغضبنا. أنت يا كامل كنت جزءًا من هذه الصلابة. ربما لا تتذكرني، لكني أتذكرك. عبيط القرية الذي عاد من الهزيمة لينذرنا من اليأس ومن العدو الذي لم يهلك، بل وتسلل إلى أراضينا من ميدان الحرب.

رمش كامل وهو يحدق إلى وجهه، ثم أنزل البندقية ببطء. يُكمل عبد السميع الحكي، وأشعر بزكيَّة تقترب خلفي. أرى كامل يجلس وسائق الجرار يستند إلى السيارة في فضول. صوت عواء من بعيد أعرفه جيدًا. شيطان اليأس.. شيطان النسيان والتراخي.

أتذكر متابعتي ورانيا أخبار الحرب أربعًا وعشرين ساعة في اليوم في أول شهر من الحرب على فلسطين، وأتذكر أنني لم أبحث عن خبر منذ.. منذ أشهر. لقد يئسنا.. المعركة (بدَّها طول نَفَس) ونحن أنهكنا الطريقُ في أول أمتاره لأننا تحمسنا وغضبنا ولم نفكر، لم نتريث، لم نحسب للطريق الممتد حسابه. لماذا تعجبت من يأس سكان هذا العالم إذًا؟ الوحوش تعمينا عن الطريق، تُقعِدنا، ترعبنا وتستنزفنا، وما هي إلا محض وهم..

ويستمر الصوت من الراديو: «**آه وآه.. وقال هكذا الدنيا، وكل من عليها فان.. معي جرحي يا طبيب وجوه القلب وأنا سايعه.. وقال هكذا الدنيا، وكل من عليها فان..**»

***

هنا توقفت للحظة وتساءلت: لماذا لم نصل حتى الآن؟ لماذا انتهى بنا الطريق إلى حيث لا نريد؟ هل كانت نهاية الطريق هي ما نتمناه؟ هل ضللنا الطريق؟....

ينبغي لنا أن نسأل أنفسنا، هل اخترنا الخيار الأنسب؟(9)

***

المكان: قنا

الزمان: 1972

عرفت لاحقًا أنَّ سنة 1972 هي أطول سنة في التاريخ، فهي التي اعتمد فيها مراقبو الوقت في جميع أنحاء العالم (الثواني الكبيسة) وطبَّقوا في إطار اتفاقٍ دوليٍّ إجراءاتٍ لإضافة هذه الثواني إلى التوقيت المعتمد دوليًا. هذه السنة أطول بسبع وعشرين ثانية من باقي الأعوام.

لا أتذكر الكثير عن الماضي، لكنِّي أتذكر هذه المعلومة التي لا أفهم جيدًا ما وراءها. لماذا؟ لأنَّ حياتي انشطرت في ذاك العام ولم تعد كما كانت.

معي شهادة التوجيهيَّة، لستُ جاهلًا. أتابع الأخبار في الراديو وأقرأ الجرائد، وأعرفُ العدوَّ وأفعاله. أنا من الجيل الذي وُلِد وتربَّى على أنه سيحارب وسينتصر أو يموت على الطريق. كنت محظوظًا إذ عرفت طريقي منذ طفولتي ورُحت استعد له نفسيًا وجسديًا حتى التحقت بالجيش في مطلع شبابي حتى عام 1972.. أتذكر أنني كنت عائدًا إلى كتيبتي من قريتي بعدما أنهيت إجازة سريعة، ولأسباب تتعلق بصعوبة الطريق وقِلة السيارات، نزلت ليلًا كي ألحق بالقطار الحربي في الموعد.

استنفذت الحربُ الجيشَ والدولةَ والنَّاسَ حتى جاعوا ومرضوا وكادوا يفنون حزنًا ويأسًا. قبل أن أخرج من القرية، صادفت عصابة تسرق ما تبقى من بهائم عجاف في زريبة الحاجِّ يحيى المشدِّ رحمة الله عليه. دون تفكير قطعت عليهم طريق الفرار وهددتهم وتوعدت لهم. أعرف هذه الأعين المُطِلَّة من فوق اللُّثمِ. هؤلاء من أبناء قريةٍ مجاورة. هل وصلت الخِسَّة إلى سرقة بهائم أرملة ويتامى؟ يبدو أنَّ الشَّجارَ بيننا أيقظَ السِّتَ أرملة الحاجِّ، فرأت ما يحدث ورَقَعتْ بالصوت. كان مع أحد اللصوص طبنجة، فصوبها نحوها وهددها بالقتل لو صرخت، لكنه لم ينتظر رد فعلها، وأطلق الرصاص لتسقط المرأة ميتة في التوِّ. غلا الدم في عروقي وأنا أراهم يتركون البهائم ويهربون وهم يتبادلون السباب والشتائم، وواحد منهم يضحك كالمخابيل. عدوت خلفهم واشتبكت معهم. هل تعرفون مقدار الغضب الذي شعرت به وقتها وأنا أراهم العدو السارق الجبان المراوغ قاتل النساء والأطفال؟

لكنهم كانوا ثلاثة، قساةً مرتعبين مختلين. أردوني أرضًا وكالوا لي اللكمات، حتى سمعوا من يصيح بهم وهو يهرول على الطريق. رفع ذو الطبنجة سلاحه نحو القادم، فتعلَّقت بذراعه وطاشت الطلقة، وخدشت فخذي فقط. ثم فجأة لم أجد دار الحاجِّ ولا الطريقَ الترابيَّ ولا البهائمَ. صمتٌ تامٌّ وظلام حالك.

توقفنا عن الضرب لحظاتٍ. تساءلنا عما حدث. وجدت يدي الطبنجةَ في يد المجرم، فجذبتها منه وأنا لا أراه، ثم وقفت أشير بها نحو أصواتهم وآمرهم بالتوقف. لكنهم لم يتوقفوا بالطبع. سمعتهم يعدون ويبتعدون. بطني تؤلمني من الركلات، وأعتقد أن أنفي ينزف. تحسست أسناني بلساني فوجدت سنًّا ناقصة. المهم، أين أنا؟

تحسست المكان حولي. عن يميني سور متهدِّم. اعتادت عيناي الظلام شيئًا، فحدَّقت إلى المنقوش عليه. نوفمبر 1944. ديسمبر 1944.. وهكذا حتى

أبريل 1951. ثم بخط مختلف، خط مألوف إلى حد مريب: أغسطس 1960. خط طفولي يكتب أغسطس (غُسطس)، لأن ذاك الطفل المدعو عبد السميع خَلَف كان يكتب اسم هذا الشهر هكذا حتى بلغ الثانية عشرة. أنا كنت هنا من قبل..

أين أنا؟ كيف جئت؟ لماذا كتب أحدهم التاريخ على السور من قبل أن أولَد؟ وماذا كان يُحصي؟

مشيت كثيرًا تلك الليلة أبحث عن مخرج. ناديت، صرخت. لم أكن أخشى الظلام أو الوَحشة، كل ما انصبَّ عليه تفكيري موعد القطار. لو فوَّته لحققوا معي. ماذا سأقول لهم؟ أين كنت؟

مشيت ومشيت. عبرت جسرًا طويلًا، مشيت فوق قضبان السِّكة الحديد. رأيت عن بُعد مكانًا منيرًا، مشتعلًا. جريت نحوه وأنا أنادي. هذه قريتي. ما هذا الحريق؟

ثم سمعت صوتَ قذيفة ورأيتها تشق السماء، لتهبط فوق البلد. صرخت وناديت على أهلي وجيراني وإخوتي. ماذا يحدث؟ هل هاجمث إسرائيل الصعيدَ أخيرًا؟!

عندما وصلت، لم أرَ وجهًا أعرفه، لكن كل الوجوه دامية، جَزِعة. أطفال تزحف من تحت الرَّدم، نساء ينادين على ذويهن، رجال يحملون أشلاء ويجرون في كل صوب. هذه ليست قريتي.. بل هي، لكنها صارت دَكًّا. أوقِفُ المارة أسألهم عن أهل بيتي، أسأل عن الجيران، عن أي شخص. لا مُجيب.

يهمس لي صوت في عقلي: «**كل هذا لأنك لم تلحق بالقطار. كل هذا لأنك لم تنفذ وصية الصول مرتضى.. كل هذا لأن كلام كامل المجذوب كان حقيقيًا ولم يصدقه أحد..**»

جريت في الحارات الضيقة بين البيوت أبحث وأصرخ، حتى تكوَّمت جوار حائط أغطي أذنيَّ. تشرد نظراتي في الهول حولي، وأشعر أنَّه لا حول لي ولا قوة.. لكن سرعان ما أقوم وأفعل ما يفعله الرجال؛ تحمُّل مسؤولية تخاذلهم. حفرت الردم وحملت الجثث وساعدت الناس. يتعامل الجميع معي على أنني جزء مألوف من كل هذا. يؤذن أحدهم للفجر، فلا نجد ماءً للوضوء. نتيمم ونصلي، ثم نرص الأشلاء لنصلي عليها صلاة الجنازة.. ثم..

تشرق الشمس مختنقة حمراء. أستلقي على ظهري أحدق إلى السماء التي يحجبها عني الدخان.. أغلق عينيَّ. أنام.. ثم أشعر بمَن يهزني ويصيح:

- عبد السميع. عبد السميع؟ أنت هنا ونحن نبحث عنك؟ ماذا حدث لك؟

أنا في قريتي! كيف؟ أمد ذراعيَّ أمامي لأجدني مغطى بالدماء الجافة والرماد. لم أكن أحلم. أريد أن أعود إلى هناك! لا بد أن أكمل ما كنت أفعل..

لكم أن تتصوروا ما حدث لي بعدها. قال شاهد أنني اختفيت أنا والعصابة البغيضة التي لم يجد لها أحدٌ أثرًا في أي مكان. بالطبع خضعت للتحقيق، في

البداية كذبت وزعمت أنني تأخرت عن القطار لأنني أصبت في شجار مع لصوص في قريتي. أُحِلت إلى لجنة طبية أكّدت أن إصاباتي لا تتوافق مع ادعائي. اعترفت أخيرًا بما حدث، رجوتهم أن يقبلوا عودتي حتى لو حبسوني. لا بأس. المهم أن أمضي العقوبة ثم أعود إلى ساحة المعركة. أقرّت اللجنة الطبية أخيرًا أنني.. مجنون، وأنني أنا من تسبب في جروح جسدي لنفسي، فسرّحوني من الخدمة. هكذا بكل بساطة..

قصة كامل في عقلي لا تُنسى. مجذوب قرية آخر جلب العار لأهله. لكني لست مجذوبًا! للغرابة صدقتني عائلتي، وأخبرني خالي لأول مرة أنه رآني أختفي مرتين من أمام عينيه وأنا طفل! أول مرة كنت أسبح في الترعة، وكنت في الخامسة. دفعني أحد الصبية وهو يلعب معي، فارتطم رأسي بجذر شجرة ناتئ من حافة الترعة. يبدو أنني فقدت الوعي. نزل خالي لينجدني، فلم يجدني في الترعة، بل على الضفة الجهة المقابلة.

في المرة الثانية، كان يوصلني بالجرار إلى المدرسة، وكنت في الثانية عشرة تقريبًا. لم أكن قد كتبت الواجِب، ولا أريد أن يضربني الأستاذ رضا. عند بوابة المدرسة نزلت، ثم اختفيت أمام عينيه. بحث عني في كل مكان، وعندما يئس عاد إلى الدار ليجدني هناك منذ ساعات، ولا أعرف متى عدت من المدرسة ولا كيف. والآن، وبعد كل تلك السنوات، أفعلها مرة أخرى ليزعم الجميع أنني (صاحب خطوة)، وربما أصير وليًا! لست وليًا، أنا جندي مقاتل!

***

حاولت مرة تلو الأخرى التسلل إلى الثكنات، وفي كل مرة أفشل. أريد أن أكون معكم! لماذا تلفظونني؟ لماذا تقطعون عليَّ الطريق؟! ترصّدت بقادتي وهم عائدون إلى بيوتهم، رجوتهم واستحلفتهم بالعزيز الغالي. لا فائدة. الكل يراني مجنونًا لا يليق بشرف الحرب.

في طريق العودة إلى قريتي؛ طريق اليأس التام، انتقلت إلى ذلك المكان، وكنا نهارًا. هناك وجدت نفسي في ساحة المعركة، جندي مقاتل عبد السميع خلف سليمان ماهر، بل ووجدت حول عنقي سلسلة جندية باسمي عوضًا عن تلك التي جردوني منها. حاربت هناك والتقيت كل الرجال الذين افتقدت صحبتهم. مرت ليلة تلو ليلة، ونهار تلو نهار. النصر قريب.. بالتأكيد قريب.

وفي نهار بائس من أول أكتوبر 1973، وجدت نفسي ملقى إلى جوار الطريق الذي اختفيت منه منذ.. منذ متى؟! قضيت في ذلك المكان أحد عشر يومًا، فما الزمن الذي مر هنا؟

مشيت حتى القرية وأنا أفكر فيما يحدث. ما هذا المكان الذي يشبه الأحلام وليس بحلم؟ لا أتذكر ما رأيت هناك وأنا طفل، لكن يبدو أنني مكثت فترة تمكنني من كتابة تاريخ على السور. لاحظت أن ذكرى الحرب التي خضتها هناك أكثر وضوحًا من ذكرى قذف قريتي. ثم فطنت إلى أن ذكريات عالمي الحقيقي تتلاشى، ولا يتبقى سوى ما له علاقة بالحرب وبالعالم العجيب هذا. أذكر شذراتٍ من هنا وهناك، خاصة المواقف التي ترسلني إلى ذلك العالم.

حسب ما حكى خالي، أنا ظهرت على جانب الترعة الآخر لحظة اختفيت من أمامه. لا أعرف متى وصلت إلى الدار عندما اختفيت من أمام المدرسة. هل

في اللحظة نفسها أو بعدها. قيل لي أنهم بحثوا عنّي يوم اختفيت بعد مواجهة السارقين، فمتى ظهرتُ في الزُقاق؟ هل ظهرت لحظة اختفيت ولم يعثر عليّ أحد، أم تأخرت؟

واليوم، كم لبثت مقابل أحد عشر يومًا في العالم الآخر؟ بعودتي إلى قريتي عرفت أنني غبت مسافة السكّة فقط. هل يمكن للمرء أن يظل هناك قدر ما يشاء؟ هل هي أرض تتحقق فيها الأحلام أم الكوابيس؟ مرة رأيت أسوأ مخاوفي، ومرة عشت أقصى ما تمنيت. كيف الذهاب إلى هناك من الأساس؟ هل أذهب في قمة ألمي أو قمة خوفي أو.. متى وكيف؟!

دونت في كراسة كلَّ مرة استطعت تذكرها من رحلات إلى هذا العالم، وكتب أمامها الشعور الذي تملّكني وقتها فنقلني إلى هناك. مرة فقد الوعي، مرة كنت خائفًا، مرتين كنت غاضبًا.

كم مرة ذهبت إلى هناك ولا أعيها؟ ما هذا الـ(هناك)؟ عالم الجنّ؟ لا.. هذا مكان مثل أيّ مكان طبيعي آخر. كيف أذهب إلى هناك؟ حسب ما سمعت وأنا صغير أن ذوي الخطوة يعون جيدًا ما يفعلون، ودائمًا تكون رحلاتهم إلى مكان يتوقون إلى الذهاب إليه؛ المسجد الأقصى، المسجد الحرام، أو حتى ضريح من أضرحة أوليائهم. لماذا وكيف أذهب أنا إلى هنا، ومنذ طفولتي؟ تراني لم أذهب من قبل وأنا طفل، وخُيِّلَ لخالي أنني اختفيت من الترعة لأظهر عند ضفتها، بينما أنا سبحت وخرجت؟ هل تسللت من أمام المدرسة وعدت إلى الدار دون أن يلاحظ؟

لكن ما تفسير الكلمات المكتوبة بخطّي على السور؟ لولا ما رأيت من حروب هناك، لقلت أنني أمشي وأنا لا أعي لحركتي، وأذهب إلى مكان بعد خارج حدود القرية.

إذًا هذا المكان حقيقي، وخارج حدود قدرتي على التفكير والتفسير.

***

لم أحدّث أحدًا بما جرى، ويكفيني ما يملأ عقلي من أسئلة.

مرَّت أيام ثم بدأ رمضانٌ حزين، الأيام قاسية والليالي باردة. يبدو أنَّ الجميع يعتاد وينسى. في مَصر (القاهرة) يعرضون فيلم سعاد حسني ومسرحية عادل إمام، ولا كأن الهزيمة تنتهكنا كل يوم. تحتل تلك الأخبار الماسخة صفحات الصحف الأولى، السادات وكسينجر مجتمعان.. هنيئًا لهما.

ما ميَّز فجر ذاك اليوم؛ السادس من أكتوبر، هو ما قرأ الشيخ محمد أحمد شبيب في مسجد سيدنا الحسين وأذاعته الإذاعة. **(إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون)**.

كنت قد عدت للتوّ إلى الدار من السوق، عندما سمعت وأنا عند العتبة انقطاع بثّ الإذاعة المعتاد بصوت مارش عسكري. شخصت الأبصار وارتجفت

الأفئدة. ماذا حدث؟! أطلّت عيون المارة من نوافذ صحن دارنا، تتابع ما يقول المذيع حلمي البلك..

«هنا القاهرة. جاءنا الآن البيان التالي من القيادة العامة للقوات المسلحة. قام العدو في الساعة الواحدة والنصف من بعد ظهر اليوم بمهاجمة قواتنا في منطقة الزعفرانة والسخنة في خليج السويس، بواسطة عدة..»

«**استر يا رب..**».. «**أولاد الملاعين**».. النكسة مرة أخرى.. النكسة المعلقة فوق رؤوسنا تنتظر لحظة انقطاع الحبل لتقتلنا بخزينا. صوت كامل يصرخ من طرف القرية البعيد من محبسه الاختياري في بيت أبيه. اصرخ يا كامل.. اصرخ..

ثم أجد نفسي على قارعة الطريق الضيق الموحش. عن يميني ويساري البوص. وراء البوص ساق ممدة. أمشي نحوها، أفرِق العيدان لأرى جثة رجلٍ ممزقة، صدره مفتوح وأحشاؤه غير موجودة. درت حول نفسي أتساءل عمَّن فعل هذا. ذئب؟ وهل سيفتح صدر الرجل هكذا؟ مَن هذا وكيف جاء؟ قلَّبت في جيوبه حتى وجدت محفظته. فتحتها فعرفت أنه من ساكني الفيوم، عمره ستة وأربعون عامًا، ملابسه بالية ممزقة لا من جراء ميتته، بل من قبل ذلك. من بعيد رأيت إطارَ سيارةٍ مخلوعًا. هذا مكان لم آتِ إليه من قبل.

ثم أجد نفسي جالسًا مكاني، أستمع مع النَّاس وسط زحام شديد إلى مارش عسكري استمر نصف ساعة حتى البيان الثاني الذي جاء مبشرًا، لكني لم أستبشر. هذه الحرب لن تنتهي.

ثم في الرابعة وسبع دقائق بالضبط، جاء البيان الخامس: «**...نجحت قواتنا في اقتحام قناة السويس في قطاعات عديدة، واستولت على نقاط العدو القوية بها، وقامت برفع علم مصر على الضفة الشرقية للقناة..**»

قشعريرة حادَّة تبدأ من مؤخرة رأسي وتزحف على ظهري. علم مصر يرفرف الآن، في هذه اللحظة، على الضفة الشرقية. لقد فعلها الرجال!

فرش الناس طعام الإفطار في الساحات بين البيوت احتفالًا، وانطلقت أنا أعدو إلى بيت كامل. وقفت وراء نافذة غرفته الموصدة، أدُق عليها وأصيح: «**لقد عبرنا يا كامل! عبرنا!**»

فجاءني صوته المكسور من خلف الشيش: «**عبرنا، نعم.. لكن هل انتصرنا؟ هل استعدنا أرضنا كلها؟ الوحوش لا زالت هنا يا (وَد عمي). ستظل هنا وستطاردنا وقتما نرتاح ونطمئن. (مسمار جحا..)**». أجهش كامل بالبكاء. وقفت دقائق ثم عدت إلى حيث التمر المنقوع في الماء يوزع كما يوزع شربات الأفراح. افرح يا عبد السميع.. افرح. كامل مجنون بالفعل.

لكنهم انتصروا دوني! لم أرَ الراية بعيني! لم أعبر لم تبتل ملابسي لم أستنشق غبار الضفة الشرقية! لم أستشهد!

أتحسس السلسلة التي وجدتها باسمي في العالم الآخر، تلك التي لا تفارق جيب جلبابي. أنا كنت معهم. حاربت رغم كل الظروف. أنا شاركت..

بل أنا مجنون! هذه السلسلة لم تأتِ معي من العالم الآخر، بل لم أسلمها من الأساس. لقد سرقتُها. أنا أقتحم النَّصر عنوة لأحفر اسمي فوق أسماء الجميع. أنا مجنون..

بل مكلوم. أنا مكلوم. قطعت الطريق حتى كدت أصل إلى النهاية. لم أقصِّر لحظة. هذا عقابُ ذنب لم أقترفه. تبًا لذاك العالم وما فيه!

تركت الإفطار ومشيتُ غير مكترثٍ للأفراح والهتافات حتى خرجت من القرية. حاولت أن أذهب عامدًا إلى ذلك العالم الغريب ولم أفلح. ثم هبطت عليَّ الحقيقة: أنا حاولت وفشلت كآلاف من حاولوا وفشلوا. لست استثناءً من بين كل اليائسين من البشر. أنا إنسان عاديٌّ، لن تُطوى لي الأرض ولن ينشق لي القمر. حاولت وفشلت ونجح غيري. يجب أن أغلق هذه الصفحة إلى الأبد.

لمَّح لي خالي أن ابنته تُطلب للزواج، وأنني أولى بها. اشتريت بهيمة لأمي تنتفع منها. مات أبي في رحلة عُمرة بريَّة. استمرت الحياة رغم كل شيء، ولا أتذكر أنني ذهبت إلى هذا المكان العجيب مرة أخرى طوال تلك السنوات.

منذ أكتوبر 1973، حتى بداية 1977، طفقنا ننتظر عودة ما تبقى من أرض مصر لدى المُحتل. طفقت أنا أنتظر حربًا أخرى ننتصر فيها النَّصر الكامل، حربًا أشارك فيها بنفسي. هذه هي الحياة التي أريدها بحق، لا الحياة الرتيبة الكئيبة. في أثناء الانتظار، لم أطق المكوث في القرية أكثر من ذلك وعويل كامل لا ينقطع، يذكرني بما أحاول أن أتعايش معه. نزلت (مصر) بعدما بعت قيراطَي أرض مما ورثت من أبي، وقررت أن أبحث عن عمل يُلهيني طوال النهار والليل. كنت قد تزوجت ابنة خالي، وتركتها وابني مع أمي وخالي. عملت سائق شاحنة في مصنع أسمنت حتى نهاية عام 76، وخطر لي مشروع يشاركني فيه الخال الحبيب، سيارة ميكروباص أقودها في شارع الهرم؛ أول شارع يستخدم تلك الحافلات الصغيرة التي دخلت مصر في الستينيات على استحياء شديد. الشارع رائق تحفه المنازل الصغيرة والفيلات، وتجتمع فيه الأراضي الزراعية بالبيوت الفاخرة والمتواضعة، يتوسطه ملهى الليل الذي أقامته شريفة فاضل –نعم، أم البطل.. للأسف- مُلتقى الأثرياء والموسيقيين. حاولت مرة أن أحضر فيه حفل لعدوية ليلة رأس السنة من باب الفضول، لكنهم ركلوني حرفيًا إلى الخارج.

يركب الناس ويروحون ويجيئون. يشاركونني حكايات الشقاء والخوف، ويطلبني البعض لنقل الأهل إلى فرح أو مَيتَم بأجر خاصٍّ، وفي مرة نقلت ميت إلى تُرَب الشافعي. أحببت هذا الطريق الطويل الممتد، خاصة في الليل حين يخلو ويلمع ضوء القمر على قمم نخيله.

بعد أشهر من عملي على الميكروباص العزيز الذي كنت أعامله معاملة الابن، اختفيت لأول مرة من شارع الهرم لأجد نفسي في العالم إيَّاه، وكان ذلك ليلة رفضوا دخولي الملهى. لقد تقبَّلت صفعة ودفعة قوية أسقطتني أرضًا من حارس فظٍّ، ولم أفعل شيئًا. كل هذا لأجل سهرة. متى تدنيث إلى هذا الحد؟ أنا جندي مقاتل –مقاتل؟ هاهاها- عبد السميع خلف...

اخرس يا عبد السميع، اخرس!

ركبتُ ليلتها السيارة وانطلقت بأقصى سرعة، فوجد الشارع يختفي تدريجيًا ويتحوَّل إلى طريق زراعي عن يمينه ترعة. هلعت في البداية، ثم أدركت أنني لأول مرة حُر الحركة في هذا العالم. أركب سيارتي وأتحرك في أمان وسرعة تُمكنني من رؤية كل شيء.

الطريق الطويل، الترعة الممتدة، خط السكة الحديدية، السور وخطِّي القديم عليه، ساحة الحرب الخالية، أطلال مدن وقرى، محال وأكشاك متناثرة، مفترق طرق ولافتة صدئة محا الزمن ما كُتِب عليها. عالم كامل ممتد، يتوسطه طريق طويل بلا نهاية، ثم رأيتهم..

ظهروا من بين الحقول، يركبون الخيل، ويضحكون ويتصايحون. هؤلاء مخابيلُ ولا شك، لكن ضحكة واحد منهم ذكرتني بصوت لن أنساه. يا الله.. هذه هي العصابة البغيضة التي تخلصت منها هنا! زدتُ سرعتي، لكنَّ واحدًا منهم سابقني وهو يصيح بي ضاحكًا:

- لا تخف! أريد أن أشكرك يا بلدينا!

لماذا أهرب؟ ماذا سيحدث لي لو توقفت؟ لقد لطمني حارس ملهى ليلى ولم أفعل له شيئًا. لا بد أن أتذكر هذا.

غلا الدم في عروقي، فأوقفت السيارة فجأة، ثم خرجت لهم. توقف أولهم، ووقف الآخران على مقربة. الخيل تلهث وتضرب الأرض بحوافرها. ترجَّل المجرم وهو يضحك ويضحكان.

- لماذا تهرب يا بلدينا؟ امكث هنا.

- أنتم.. هنا من وقتها؟

- طبعًا. هذا المكان عظيم.

- هل فيه آخرون غيركم؟

- كثيرون. لا نعرف من أين يأتون، لكنهم يأتون. ناس ضلت الطريق من كل نوع وشكل.. مسافرون..

- ثم؟ ماذا تفعلون بهم؟ لا أرى أحدًا منهم.

يضحك الرجل ويضحك الآخران، وتتحول ضحكاتهم إلى نوع من الصياح الحيواني. يكمل وهو يبتعد سيرًا نحو رفيقيه الواقفان بعيدًا عن ضوء السيارة:

- ليس هنا جوع ولا عَوَز ولا خطر.. نحن الخَطر..

ثم أرى ما لم أصدقه.. الثلاثة يتحوَّلون إلى حيوانات ضخمة ذوات حدبات فوق ظهورهم.. ضباع هائلة. أركب السيارة بسرعة وأنطلق. يرمحون خلفي وأنا

أتذكر الرجل مبقور البطن. لقد جلبتْ وحوشًا إلى ذلك العالم أيًا كانت ماهيته. لكن كيف تحوَّلوا من لصوص إلى غيلان؟ لقد حقق هذا العالم أسعد كوابيسهم!

اخترقوا حقل قصب، وعندما استدارت السيارة عند الملف وجدتهم قد لحقوا بي بعدما قطعوا مسافة أقصر عبر الحقل. كدت أرتطم بهم، فحِدت عن الطريق، لأجد نفسي في بداية شارع الهرم، ورائحة شركة السجائر (ماتوسيان) تزكم أنفي.

***

انتظرنا حربًا نستعيد بها سيناء، ولم تقع. انتظرنا رخاءً كما وعدنا السادات، فجُعنا أكثر. ثم كانت الضربة القاضية عندما قرروا رفع ثمن رغيف العيش نفسه.

نزل الناس يهتفون: «**هو بيلبس آخر موضة، وإحنا بنسكن عشرة في أوضة**».

بعد ثمانية عشر يومًا من بداية السنة، عدت من قريتي برفقة زوجتي وابني الصغير، وكانت الأولى مريضة وتحتاج إلى كشف في القصر العيني، لكن زحام المرضى المُعدَمين حال بيننا وبين تحصيل المراد اليوم.

في أثناء عودتنا إلى حيث أوقفت الميكروباص، تفجَّرت التظاهرات وأعمال الشغب والحرق. صرخت زوجتي واندسَّت تحت إبطي. نجري وأنا أحمل الولد الباكي، أحاول الابتعاد بهما عن جنود الأمن المركزي، وعن القنابل المسيلة للدموع.

أدق على أبواب المحال ليُدخلنا أحد، لكن الكل خائف، خاصة مع اندساس بعض اللصوص وسط الفوضى ومحاولاتهم اقتحام الشقق والمحال.

«**يا ساكنين القصور، الفقرا عايشة في قبور..**»

أودعت زوجتي وابني مدخل منزل، وطلبت منهما انتظاري حتى أعود بالميكروباص. سيارات ملاكي محترقة في منتصف الشارع. الكل يفر ويتعثر. صوت طلقات عناصر الأمن والغاز.. الغاز المسيل للدموع. لا أرى شيئًا أمامي. أتحسس الطريق وأرتجل. يطالبني المارة بالاختباء، لكن يجب أن أجد سيارتي، شقا عمري وعمر أبي ووسيلة إنقاذ أسرتي.

كدت أصل. جندي يصيح بي أن أتراجع، أخبره أنني أريد سيارتي فقط. أتلقى ضربة من عصا الأمن المركزي، ويصدني درع، يحول بيني وبين البدن المعدني الأبيض؛ أملي الوحيد الآن. قاومت، وحاولت، واعتُقِلت ظلمًا وتركت زوجتي وابني في الشارع، غريبين لا يعرفان شيئًا في مصر. وسط المتظاهرين وأبناء الحركات العماليَّة والطلابيَّة وأنصار الشيوعيَّة، لم يلتفت أحد إلى صعيديٍّ يريد من يذهب ليطمئن على أسرته الصغيرة، ولا شيء سوى ذلك.

أفرجوا عنِّي صباح اليوم التالي ضمن الأبرياء الذين جمعوهم كما تُجمع الأسماك عاطلًا على باطل في شِباك الصيد. ولم أجد زوجتي ولا ابني مرة أخرى. لا

أعرف أين ذهبا، ولم أعثر لهما على أثر. دُرتُ على المستشفات أبحث عن جثثهما، لكن عشرات الجثث المحترقة تخبرني أني لن أتأكد أبدًا.

مضغثنا القاهرة وبصقتنا على جانب الطريق.

***

يوم عرفتُ ببدء مباحثات السلام مع العدو، متُّ في هذا العالم ميتة الكلاب، لأبعثَ هناك، في عالم فيه الوحوش صريحة مباشرة. رحلات متكررة عشوائية لا أتذكر لها بداية أو نهاية. عقلي لا يعي سوى أنني أعيش في العالم الآخر طوال الوقت. أزرع تارة، أحارب تارة، أقود سيارتي على طريق ألفته ولم يعد في مقدوره مفاجئتي.

بالنسبة لأمي وخالي، أنا في مصر، أزورهما بانتظام، وأتظاهر بأنَّ ابنة خالي العزيزة وابني لم يضيعا لأنني هزمت وسُحقت، وأن هذا فقط قضاء الله وقدره.

ربما عندما قرر كامل ترك القرية ليُنقذ مستقبل إخوتِه من سيرته كمجذوب، لم يكن يعرف بشأن مباحثات السلام، وربما عرف. لكن المصادفة هيِ ما جعلتني أقابله، ويزيد الوقود في نفسه اشتعال حنقي العظيم.

وجدت نفسي أكلمه غير واعٍ بما أقول، وكأنني أعرف ما سيحدث، وكأنَّ روحي في العالم الآخر هي التي تقود السيارة. تلك الروح المشوَّهة الحالكة.

في البدء نقلت الوحوش، ثم نقلت النُّذير، وتوالت رحلات طريق السفر الذي يعرف جيدًا مسافريه، ويعرف كيف يمنحهم فرصة ثانية بطريقته الخاصة.

***

المكان: طريق السفر-الدُشمة

الزمان: 2024

- أنا لم أعد أتذكر كثيرًا عما أفعل في العالم الآخر، عالمكم. أمضي الليل هنا، على طريق السفر الممتد، أوصل المسافرين كل إلى مكانه، ثم أعود لأجمع منهم من يريد العودة. أما مَن لا يريد، فيمكث هنا كما يشاء. أنا لا أحبس أحدًا يا دكتور، ولا أخطف أحدًا..

يقول أسامة:

- بل تخطف وتحبس. من أعطاك حقَّ نقلِ الناس إلى هنا؟ وعلى أي أسس تختار من يعود ومن يظل هنا؟! مَن يأتي إلى هنا يستسلم مع الوقت وينشغل في همِّه الخاص، قد يبدو لك مجنونًا أو مُستحِقًا للعقاب، لكنه يشغله ألف خاطر عن السؤال عن غرضك من وجوده هنا. بل هو أصلًا لا يعرفه! أكثر من يحتاج

إلى الخروج من هذا العالم هم المعذبون فيه، لكنهم أصبحوا لا يدركون أنّ في الخارج حياتهم الحقيقيّة. أنتَ لم تجلس وتسمع حكاية كل واحد منهم كي تحكم عليهم. منهم الذين أجرموا في حق الناس وفي حق أنفسهم، ومنهم من ضلّ رغمًا عنه. ركلته قسوة الحياة إلى هنا. هل تسمعني؟!

عبد السميع شارد كعادته الكريهة، ينظر إلى سائق الجرار الذي يفحص الأرض المقابِلة، وينادي بحثًا عن منصور فرج الله. ثم.. خرجت من خلف الشجرة وأسرعت الخطى نحو الرجال، فتبعتني زكية.

- أسامة.. ما أن جئنا هنا حتى انخرطنا فيما كنا نفعل قبل مجيئنا؛ رُحنا نُحقق في أمور ماورائية، وانتقى لنا السائق أو الطريق مسافرين ذوي خلفيات ما ورائية. ألم تلاحظ هذا؟ والآن لو تركنا سائق الجرار سيهيم هنا حتى يموت بحثًا عن أرض منصور فرج الله.

تقول زكية:

- ما أن جئنا نحن أيضًا حتى.. حتى أسسنا غُرزة، وتبعنا الجني بكل ما يفعله بنا. الجني نفسه ظل يُكمل ما كان يفعل.

ينظر لي أسامة ثواني ثم يقول:

- لكننا جئنا، أنتِ وأنا، لنحقق، وتحقيقنا استطاع أن يغير شيئًا، أليس كذلك؟ نحن توقفنا في منتصف الطريق وسألنا أنفسنا ماذا نفعل هنا. لقد أتَينا يا سهير لأن آخر ما كنتِ تفعلينه ليس التحقيق، بل نيّة المساعدة. لقد حققنا بدقة ما جئنا لأجله!

هذا صحيح. نحن نستطيع التغيير. بدأنا رحلتنا ونحن نعرف ما نريد بدقّة حتى لو لم نكن نعيه مباشرة. جئت أنقذ الناس، وجاء أسامة لينقذني. لقد كفَّ الجنيُّ عن مطاردة زكيّة، وأفاق كامل لمرأى سجّانه. نحن نستطيع. أضاف أسامة:

- سهير.. هذا العالم يحبس الناس في آخر ما كانوا يفكرون فيه. هذا العالم حبس عبد السميع نفسه مرارًا. مرة حبسه ليُنقذ أهل القرية من العدو، ومرة ليحارب، ومرة ليواجه البلطجية، وفي المرة الأخيرة تملّك منه تمامًا، فصار ينقل الناس إلى هنا مثلما رغب يومًا في أن يظل هو نفسه هنا. عبد السميع مسافر مثلنا جميعًا، هو فقط يتوهّم أنه سيد الطريق لأنه قادر على الدخول إليه والخروج منه كما يشاء..

أكمل أنا:

- لكنه يدخل ويخرج كما يشاء ومتى يشاء الطريق.

أقترب من عبد السميع وأنادي عليه، فيمسك أسامة رأسه ويصرخ فيه:

- انتبه هنا! أنت أسير هذا المكان! أنت تعيش في طريق لا ينتهي ولن ينتهي إلا بموتك. هذا المكان يختار متى تدخله. هذا المكان يستنزفك. أنت تظهر

مرة كل عام على طريق القاهرة الإسكندرية الزراعي، وربما تظهر مرة كل عام على طريق قنا وطريق المنصورية ونفق السبتية وكل الأماكن التي أخذت منها الركاب، أليس كذلك؟ تذكّر يا عبد السميع. ساعدنا وساعد نفسك.. أنت سائق سيارة أجرة على خطوط دقيقة بمواعيد دقيقة.. أليس كذلك؟

ينظر له عبد السميع ويعقد حاجبيه. صدره يعلو ويهبط. يقول أخيرًا:

- كل عام؟ لا أعرف.. أنا.. آتي إلى هنا كل يوم من أماكن مختلفة. لم أعرف موضوع كل عام هذا إلا منكما وقت قابلتكما.

- نحن لا نعرف إلا أنك تفعل هذا عند بنزينة طنطا، لكن مَن التقينا بهم هنا جاءوا من أماكن أخرى، وبنزينة طنطا لا تتميز بشيء ولا أغلب مَن جاءوا هنا ركبوا منها، لذا ببساطة وعلى الأغلب أنت تفعل الشيء ذاته في أماكن مختلفة.

أقول أنا:

- 365 مكان مختلف في مصر؟! معقول؟

- هذا يفسر يا سهير أنه ليس له ذاكرة عن عالمنا. لو فرضنا أننا عدنا الآن، سنعود في الثانية التالية لاختفائنا. اليوم الذي مر هنا ليس إلا أقل من ثانية في عالمنا. إذًا هو يقضي ليلة هنا ويومًا كاملًا في عالمنا، ثم يظهر في الليلة التالية في مكان آخر وهكذا. كم عدد مَن جاءوا إلى هنا؟ أكثر من 365 راكب بالتأكيد، خلال سبعة وأربعين عامًا، وقياسًا على مكان واحد فقط، ثلاثًا وعشرين مرة عاد الرجل بكامل ركابه، وفي سبع مرات عاد دون أيهم. أما باقي السنوات، فكان يعود معه نصف الركاب تقريبًا، أكثر أو أقل. هذا كلام لاشين.

أفكر معه، لو فرضنا أنه ينتقي أربعة ركاب في الرحلة الواحدة، ويعود بثلاثة تقريبًا، ففي هذا العالم أكثر من أربعين شخصًا ركبوا من بنزينة طنطا فقط.. أي أنه يجلب في العام أربعة عشر ألفًا! أسأل عبد السميع:

- هل تترك الركاب في محطاتهم كل ليلة، وتعود في الصباح لتمر عليهم وترى منهم مَن يستحق العودة؟ ماذا يحدث لمن تتركه هنا ليلة؟ هل تمر عليه في الليلة التالية أيضًا لترى إن كان سيعود؟

- أنا أمر في رحلة العودة، من يمكث على الطريق أعيده، فلا حاجة لهذا العالم باليائسين. أما من ينهمك في حياته وفرصته الجديد، فلا عودة له. اسأليهم إن كانوا يريدون العودة. هل تريد العودة يا كامل؟ هل تريدين العودة يا زكية؟

ترمش زكيّة تتحرك شفتيها دون صوت. أكرر سؤاله، فتجيب همسًا:

- لو عدت، سأعود كما كنت تمامًا؟ عند نفق السبيتة في نفس وقت هربنا؟

يجيب عبد السميع:

- نعم، لكن ستكونين في سنّك هذا؛ أربعين عامًا.

- وماذا سأفعل لو عدت؟ أنا.. لم أعد أتذكر شيئًا عن العالم الآخر، لكني ألفت المكان هنا. عشت فيه عشرين عامًا.

أقول لها:

- لكنه ليس عالمك! هذا عالم قاس مرعب يا زكية، يجوبه الوحوش والغيلان! مات كل من كانوا معكِ، ستظلين وحدك هنا؟!

- العالم الآخر مخيف أكثر يا مدام سهير. ماذا تغير هناك وهل سأتعود من أول وجديد على كل شيء؟!

يقول كامل وهو ينصت إلى صوت الجوليم يقترب، فيقوم متأهّبًا:

- اسمعا، هل تخشيان الموت؟

يجيبه أسامة:

- مَن لا يخشاه ومَن لا يخشى المجهول؟

- هل تريدان أن تموتا، حتى لو تأكدتما أن الموت أفضل من الحياة، وأنكما ستدخلان الجنة؟ هل سترغبان في الموت، أو سترجئان الفكرة إلى وقتها، وقت أجلكما الذي لا مفر منه؟

نصمت أنا وأسامة ونفكر. الموت مجهول لنا، حتى وإن كان هو الحقيقة والطريق إلى الحياة الحقيقية. نريد أن نعيش في عالمنا بأمراضه وأوجاعه ورعبه. تقبُّل الموت شيء، والإقبال عليه شيء. لا يقبل على المجهول إلا يائس أو مؤمن راسخ الإيمان، ولا أزعم أننا هذا أو ذاك. يردف كامل:

- لقد تغيّر عالمنا القديم وصار مجهولًا بالنسبة لنا. مهما كان المكان هنا مرعبًا موحشًا، فقد اعتدناه. هذه الوحوش الصهيونيّة تحتاج إلى أن تُقتل كلَّ يوم. هذه المرأة أيضًا اعتادت ما هي فيه. لو مكثتما هنا أكثر لاعتدتما الحياة هنا. الآن أعرف لماذا جئت إلى هنا، وزال غضبي من عبد السميع، وآن أوان أن أشكره كما شكره السارقون من قَبل.

هذا العالم يمتص إرادة مَن فيه. هذا العالم نسخة من عالمنا، من الدنيا. هي لعب ولهو، كَدَر وكَبَد، لكننا عبيدها التي استنزفت حقيقتهم. تدمع عيناي. أرتجف لهول ما أدركته. أمسك يد أسامة وأنظر إلى عينيه وأعرف أنه أدرك الشيء ذاته. يقول عبد السميع:

- سأعيدكما. أم ترغبان في فرصة لسماع رفض العودة ممن تبقى هنا؟

يقوم أسامة ويبعدني عن الآخرين. نقف تحت الشجرة ونفكر لدقائق، ثم يهمس لي:

- ماذا سنفعل في هذه الورطة؟ هؤلاء لن يرغبوا في العودة. لقد أثّر هذا العالم عليهم.

- كما أثرت الدنيا علينا يا أسامة. مَن يلومهم؟

- إذًا لن يساعدنا أحد. لكن وجودهم هنا خطأ!

- هذا المكان موجود من قبل عبد السميع، ويبدو أن الناس كانت تدخله بشكل ما ويُحبسون فيه. أساطير البشر عن هذه الأماكن لا تُحصى. حتى الآن يكتب الروائيون قصصًا عن أماكن شبيهة. علماء الفيزياء أنفسهم طرحوا عشرات الفرضيات التي تشير إلى الأكوان الموازية والرياضية والكمومية والفقاعية..

- وما الذي يجعل هذا الرجل مميزًا ليستطيع الخروج والدخول من وإلى هذا العالم على خلاف باقي خلق الله؟

أفكر قليلًا، قليلًا فقط، لأنني توصلت منذ ساعات إلى عدة تفسيرات، رجَّحَت لي حكاية عبد السميع واحدًا منها. عندما كان يستمع إلى بيان القوات المسلحة، اختفى من بين المحتشدين حوله، ولم يلحظ هذا أحد. من يختفي ثانية يلحظه الناس، أليس كذلك؟ ثم ما هي القدرة التي تجعل الإنسان يختفي في مكان ليظهر في الآخر ما لم يكن نصف شيطان مثل لاشين؟ أم أنه لا يختفي ويظهر، بل يظهر في مكانين في الوقت نفسه..

- يبدو أن عبد السميع هذا يا أسامة لديه قدرة من قدرات ما وراء علم النفس؛ بايلوكيشن. التواجد في مكانين. هذه ظاهرة تحدث لبعض الجمادات أيضًا على المستوى الكمي، لكن دعنا من هذه الآن. القصص عن التواجد في مكانين كثيرة، وردت في سياق تاريخي وديني وأسطوري. أتعرف من أدعى هذه القدرة؟ الفيلسوف اليوناني فيثاغورث..

لا يقاوم المرء الحكي عن معارفه، خاصة إن كان مثلي اعتاد التفسير والتبرير والتوضيح، وأدمن محاولات الإقناع. ورد في كتاب سيرة فيثاغورث وتعاليمه أنه شوهد في ميتابونثم في إيطاليا وفي تورمينيم في صقلية في الوقت نفسه، وحاضر تلامذته في المكانين، وبين المدينتين سفر بالأيام. قيل أيضًا أن بعض الصوفيين حازوا هذه القدرة، وهي تختلف عن الانتقال الآني الذي يُعرف بيه الزوهريون مريدو الصالحين مثل أبي. قيل أيضًا في سياق ديني أن السيدة مريم العذراء ظهرت في إسبانيا عام 40 ميلاديًا، في الوقت نفسه الذي كانت فيه في أورشليم. تعج سجلات محاكمة الساحرات في العصور الوسطى بأخبار من ظهروا في مكانين، وحكم عليهم بالحرق جراء ذلك باعتبار هذا من أفاعيل الشيطان. في معامل ما وراء علم النفس عشرات الشهادات عن أمور مشابهة، إلا أنها تحدث -كعادة الظواهر الباراسيكولوجية- دون تحكم كامل من صاحب الموهبة.

يقول أسامة:

- حسنًا.. إذًا عبد السميع وجد المكان في أثناء نوبة تواجد في مكانين، ووجده المكان واستحوذ عليه. نمت بينهما علاقة سامة مع الوقت واستغل هذا المكان لممارسة جرائم اختطافٍ فريدة. هذا رجل مريض مختل، بغض النظر عن قدراته وعما أودى به إلى هذا الخلل العقلي. ماذا سنفعل؟ هل ندمر هذا المكان قبل أن نرحل؟

- أولًا نحن لا نعرف ما هو هذا المكان، لكن يبدو أنه عالم متفرع من عالمنا وليس كونًا موازيًا أو بعدًا آخر. كون فقاعي أو جيبي؛ **Pocket universe**.

أشرت إلى جيب قميصه، وأخبرته أن الجيب غير مرئي تقريبًا لأنه من نسيج القميص ذاته ونقشته، لا يمكن أن تراه إلا عندما تعثر على فتحته وتعبرها.

- تخيل أن هذا القميص بحجم الكون، وأن الفتحة غير مرئية، نمر من فوقها كل يوم كما تمر المكواة من فوق هذا الجيب دون أن تدخل فيه، إلا إذا رأيت حافته ورفعتها ودخلت. تخيل أنك داخل هذا الجيب يا أسامة. جيب بحجم محافظة مثلًا. هل ستدرك أنك في جيب؟ هل ستعرف من أين دخلت وكيف ستخرج؟ هذا الرجل لا يدخل أو يخرج من فتحة الجيب، بل يتواجد بداخله مباشرة وهو بعد بالخارج. ذاكرة الرجل مختلطة لأنه يعيش حياتين في الوقت نفسه يا أسامة.

- إذًا.. هذا الرجل يحتاج إلى مساعدة. ربما لن نستطيع تدمير كونٍ جيبيٍّ من ظواهر الطبيعة، لكن لو أخرجناه من هنا عنوة مع باقي الناس..

- سيعود يا أسامة. بالإضافة إلى أن هؤلاء الناس لا يريدون العودة. لا يمكننا أن نرغمهم على ذلك وإلا تحملنا مسؤوليتهم إلى الأبد. يجب أن نخبر مَن هنا فقط بالحقيقة، وعليهم أن يختاروا. عبد السميع رغم جنونه يعيد من يريد العودة. هو لا يريد تلوث كونه. لا بأس. لنخبر الناس بالحقيقة ونترك لهم الاختيار.

ننادي على كامل وزكية، ويخبرهما أسامة بالخطة وهو يكتب شيئًا في دفتري.

- اسمعي يا زكية. مهمتك أن تنتظري الزجاجة، وتدسي فيها هذه الرسالة. كتبت هنا حقيقة عبد السميع وحقيقة هذا العالم، وأن من يريد الخروج منه عليه بالمكوث على الطريق حتى تأتي السيارة. وأنت يا كامل، في النهار ستذهب إلى السور وتكتب عليه ما سأكتبه لك في هذه الورقة، وتكرر هذا على أي سطح صلب. هذه الإرشادات نفسها في الزجاجة.

- هل تضمن أن ينفذ عبد السميع؟

- لا ضمان، لكني أعرف أنه يعيد بعض المسافرين بالفعل. إنه لا يكذب بهذا الشأن.

أفكر في أنَّ لاشين ساعدَنا حقًا بما أكده لنا عن رحلات عبد السميع. هذا الرجل مجرم مختلف، لكنَّ كل المجرمين المتسلسلين لا يحيدون أبدًا عن طقوسهم. هذه هي المزية الوحيدة في أولئك الشياطين. نعود بعد ذلك إلى عبد السميع، ونساعده نحن وكامل في إخراج الميكروباص من الوهدة بربطه في

الجرار. بمجرد أن استقر الميكروباص على الطريق، ركبت أنا وأسامة وعبد السميع. أخرجت رأسي من النافذة وناديت على زكية، لا أراها من دموعي.

- زكية. تعالي معنا.

- (جت الحزينة تفرح) يا مدام سهير. لو عدت سأعود إلى عام 2004. ولو مئيت نفسي حتى تمر عشرون عامًا وانتظرتك عند البنزينة، ربما لن أعيش حتى وقتها. ارحلا أنتما، ولا تنسياني. سأظل مع كامل. وَنَس..

تعطيني زكية زكيبة الطعام كأننا مسافران بالفعل، فألثم خديها. يركب عبد السميع، ويبدأ تشوش الراديو يتزايد. تتحرك العربة ويتراجع الطريق إلى الخلف. أمسك يد أسامة وأنا أقاوم حقًا أن أظل هنا. عيناي معلقتان بالنافذة الخلفية وكامل يلوح لنا بالبندقية، وسائق الجرار يتبعنا لبضعة أمتار، ثم يبطئ وينزل إلى طريق فرعي لم أره من قبل. لقد اختار الرجل مكانه هنا.

- احترس يا أسطى!

أنظر أمامي، لأرى غولًا يسد الطريق. تتوقف السيارة في رد فعل تلقائيٍّ، فأقذَفُ إلى الأمام وترتطم رأسي بمقعد السائق. أسمع صرخة من الخلف، أستدير فأرى الغول الآخر يجُر زكيَّة، أما الأول فيقول لعبد السميع:

- أعطني المسافرين وارحل لحال سبيلك.

لا أعرف ما هو ميزان القوى هنا الذي يجبر عبد السميع للانصياع للعصابة، أم أنه لم يواجههم حقًا من قبل؟ باب موارب في حياته استغله هذا العالم؟ يهتف أسامة:

- ما هؤلاء يا أسطى عبد السميع إلا وحوش لا تفرق شيئًا عن الصهاينة. تذكر ما قال الصول.. تذكر ما قال كامل.

أغلق أسامة قفل باب السيارة، لكني كنت أنظر إلى الخلف. إلى زكية. ضربت ظهر المقعد بقبضتي وأنا أهتف به أن يعود إليها. ظل يحدق إلى الغول أمامه كأنه مُخدَّر. دون تفكير لففت حزام حقيبتي حول عنق السائق، وأنا أعبر من فوق الحاجز خلف المقعد الأمامي لأجلس إلى جواره. صوت أسامة ينعتني بالمجنونة، لكن جسده يعرف ما عليه فعله. لف ذراعه من الخلف حول عنق عبد السميع، حتى فقد الوعي، وسحبه إلى الخلف فجلست مكانه. كيف يقودون الميكروباصات؟! المشكلة أن ساقاي لا تصلان جيدًا إلى الدواسات، ولا أرى من فوق عجلة القيادة بشكل كامل. لكن لا يهم. هذه سيارة يا سهير كأي سيارة..

أتراجع بالسيارة إلى الخلف بسرعة حتى أصل إلى الغول الثاني، ثم أتوقف وأنزل رغم اعتراض أسامة الذي نزل بدوره وهرع إلى كامل يأخذ منه البندقيَّة. ترك الغولُ زكيَّة، واستدار نحوي. زحفت زكية على الأرض نحو البوص جهة الدُشمة، واختفت وراءه. أطلق أسامة الرصاص على الغول فطاشت الرصاصة وكاد كتف أسامة ينخلع من رد الفعل. أطلق كامل رصاصة أخرى من قرب الدُشمة، أصابت صدر الغول. جاء الوحش الثاني يقطع المسافة وهو يعوي عواءه الضاحك.

صوَّب كامل نحوه، وأطلق النَّار في اللحظة التي شعرت بها برأس الغول الأول يضربني فأسقط أرضًا وتنكسر نظارتي.

أسامة يقوم مترنحًا، ويحمل البندقية كهراوة يضرب بها الغول الذي أسقطتني. أسمع صوت زكية تصرخ وهي تعدو نحو الغول الآخر، وتلقي عليه شيئًا، ثم تشعل القدَّاحة وتنتظر. اقترب منها الغول فاشتعل فراؤه واشتعل معه كُم جلباب زكية. زحفت نحوها ورحت أرمي التراب عليها وهي تمرغ ذراعها على الأرض. الغول المشتعل يتخبَّط ويزأر.

- لا تتركيني يا سهير.. لا أريد أن أموت..

المشكلة أن جلبابها غارق بالخمر الكريه. أبحث حولي عن شيء أغطيها به كي أمنع الأكسجين عن النار. أعود إلى السيارة فأجذب لفافة الطعام لأفكها واستخدمها، فلا أجد عبد السميع.

أنظر إلى أسامة، فأراه يهرول ناحية زكية وهو يصيح بي:

- سأحملها أنا. قودي السيارة.

- عبد السميع ليس هنا!

أعاون أسامة على لفِّ صدر وذراع زكيَّة بالقماش، وحملها إلى الميكروباص، بينما يتخبَّط الوحش المحترق في حقل قريب ويضرم فيه النيران. كامل لا زال في مكانه، يضرب الغول الآخر بالرصاصة تلو الأخرى حتى ارتمى على الأرض.

نضع زكية على الأريكة الخلفية، ويقول لي أسامة:

- اركبي معها وسأقود.

- سأقود أنا، لقد خُلِع كتفك!

- أنا بخير. هيا!

- لماذا تجادل كثيرًا! انظر إلى عروقك المنتفخة؟ هل تريد أن تموت هنا يا أسامة؟

- لن أموت يا سهير! لماذا لا تفعلي ما أقول ولينتهِ الأمر؟!

ما هذه الرائحة؟ لا.. لا..

تصرخ زكية، فنلتفت نحوها. الشيء الدامي برائحة الشامبو يجرها من نافذة السيارة إلى الخارج وهو يغمغم: «**أمًا**». المشكلة أنني أشعر بالرثاء له حتى وهو مسخ أو جنيٌ أو.. أو شيء. هذه أمه، وقد أنقذها مرتين، ولن يحب أن تتركه وترحل معنا. أمسك ساق زكية وأجذبها. لن تنتهي هذه الليلة..

أجفل وأنا أشعر بمَن يمسك ذراعي من الخلف، يكور أسامة قبضته ويطوحها إلى الوراء دون تفكير. نسمع صوت عبد السميع يزعق:

- لا أريدكما في عالمي..

***

حصريا على روايات وكتب عربية وعالمية
https://t.me/riwayat2025

عندما تقرر أن تبدأ الرحلة، سيظهر الطريق.(10)

---

(8) العدد السادس- جزيرة الضحاك

(9) كتاب (الطريق)

(10) جلال الدين الرومي

الفصل السادس

هذا الجزء أحكيه أنا، لاشين.

***

تقف سيارتي بعرض الطريق تسده. السيارات تطلق النَّفير من حولي ويسبني سائقيها، لكن عيناي معلقتان بالجهة الأخرى من الطريق. سهير هناك، تظهر حرفيًا من العدم، تمسك بيد أسامة. ظهر السائق لنصف ثانية خلفهما، ثم اختفى مرة أخرى، هكذا دون ميكروباص.

أترك السيارة كما هي وأعبر الطريق إليهما. لا يهم إن قتلني أسامة الآن. أريد أن أراها. أريد أن.. ما هذا؟! ملابس سهير معجونة بالدماء والتراب. نظارتها مفقودة. ذراعها مجروح جرحًا بشع المنظر. أسامة ليس أفضل حالًا، لكنَّ له ربًّا يشفيه. المهم صغيرتي.

يهرع فتحي وهاني يعبران الطريق، وخلفهما بائعة الشاي المسنة، تحمل إبريق ماء. نظر لي فتحي في قلق، وجذبه هاني نحوه وهو يغلق ياقة قميصه من البرد الذي أتسبب فيه. تنظر لي سهير وهي تضيق عينيها كي تراني جيدًا. أبتسم، وأبتعد ببطء. يغمغم أسامة وهو يمسك ذراعي:

- شكرًا يا لاشين.

- عفوًا يا أسامة..

أعود إلى سيارتي، لكني بالطبع أعرف ما دار بينهم. شربا الماء، وأتى أحدهم بمقعدين بلاستيكيين، فجلسا عليه، وحكيا مختصرًا مُخِلًا ووعدا هاني وفتحي بلقاء أطول لاحقًا. مسدت بائعة الشاي على شعر سهير، ثم عانقتها وأخبرتها أن المهم سلامتهما.

ركب الزوجان سيارة أسامة بعدما اغتسلا قدر الإمكان في دورة مياه البنزينة، واختفيا في الطريق إلى المدينة.

قال أسامة لسهير باسمًا:

- مَن يغامر بالذهاب إلى أبعد الحدود، هم وحدهم من يعرفون المدى الذي يمكنهم الوصول إليه.

- ماذا؟

- بيت شعر لإليوت تذكرته. حقًا لم أكن أعرف ما يمكننا فعله يا سهير إلا عندما جربنا.

- يخطر لي عبارة أكثر بساطة يا أسامة. (مش يمكن أما أجرب أطلع بعرف؟). ليست بيت شعر، بل إجابة حزلئوم(11) على سؤال (تعرف تسوق؟). تبدو

عبارة حمقاء، لكن كم منا لا يعرف حدود طريقه دون أن يخوضه؟

تبتعد السيارة بصوت ضحكاتهما، فلا أتبعهما.

لا شيء أحكيه في هذا الفصل سوى ملاحظة بسيطة غير هامة، أدركتها بعدما سمعت سهير تحكي الحكاية بالتفصيل لكاتبة هذا الكتاب. تذكرت أن المرأة بائعة الشاي ستينية، كفها البادي من كم عبائتها محترق. سألت عنها في البنزينة لاحقًا فقيل لي أن اسمها زكية، تبيع الشاي في هذا المكان منذ بداية عام 2024، لكن يبدو أن ما حدث لسهير زاهر وزوجها أفزعها، فرحلت ولم يرها أحد مرة أخرى.

ربما نختار الطريق، أو يختارنا، لكن لا أحد يختار موعد وكيفية العودة، فالطرق خلقت للسفر في حد ذاته، لا للوصول.

أشغل راديو سيارتي وأبتعد إلى رحلتي الخاصة، يسليني في الطريق صوت نجاة تشدو: «**يا مسافر جواي، طالت رحلتي وياك.. وطال السفر..**».

---

(11) شخصية من فيلم (لا تراجع ولا استسلام) مثلها أحمد مكي

انتهيت من قراءة كتاب:

لاشين: الكتاب الخامس عشر - عن الرعب والسفر

كتوبيا للنشر والتوزيع

حصريا على روايات وكتب عربية وعالمية
https://t.me/riwayat2025